

جوهرا الاسلام

العدد 6/5 - السنة 24
رجب 1447 هـ / ديسمبر 2025 م

الثلث 5 د.ت - 5 أورو



جواهر الإسلام

مؤسس المجلة فضيلة
الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله

المدير ورئيس التحرير
الأستاذ محمد صلاح الدين المستاوي

العنوان	28 نهج جمال عبد الناصر - تونس 1000
الهاتف الفاكس	216.71.327.130 216.71.423.233
البريد الإلكتروني الموقع الإلكتروني	mestaoui.s@gnet.tn www.jawhar-al-islam.info
الحساب الجاري بالبنك العربي لتونس (الجزيرة)	010000211110000238106
ISSN	4957-0330

الاشترک للمؤسسات	الاشترک بتونس	الثلث للأفراد
بتونس 50 د.ت	للأفراد : 30 د.ت	بتونس 5 د.ت
بالخارج 50 أورو	بالخارج 40 أورو	بالخارج 5 أورو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



جواهر الإسلام

مؤسس المجلة فضيلة

الشيخ الجليل المستاوي رحمه الله

المدير ورئيس التحرير

الأستاذ محمد صلاح الدين المستاوي

1447 هـ / 2025 م

المحتوى

الافتتاحية : الأثر الإيجابي للتجانس الديني في بلاد الغرب الإسلامي

6 وضرورة دعمه والحفاظ عليه

رئيس التحرير

8 تفسير آيات من القرآن الكريم

بقلم الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله

12

12 «الخطاب الإسلامي بين القواطع والاجتهاديات»

بقلم العلامة الشيخ عبد الله بن بية

23 سيرة الأستاذ العالم، صاحب الفضيلة: السيد أنس الشرفوري

بقلم تلميذه الأستاذ صالح العود

25 تجزؤ العدل الدولي والسلام المفقود

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور أحمد الطيب

28 الحديث الرابع والثلاثون : النهي عن المنكر

بقلم الأستاذ محمد صالح الدين المستاوي

33 صناعة الفتوى المعاصرة

بقلم الدكتور قطب مصطفى مانو

36 الكوثر : لاموت الإنسان «في سيرة الشيخ الحبيب المستاوي»

بقلم الأستاذ أحمد بن زايد

45 الحرمان الشريفان وجامع الزيتونة (القسم الاول)

بقلم الدكتور عبد الوهاب ابو سليمان

ميزان العمران الدائري نحو تأسيس فقهي للإقتصاد الدائري : الحلل المستدام

53 بين المصلحة والعدالة ومالات الفعل الاقتصادي

بقلم : الأستاذ الدكتور محمد بشاري

مشروع حوار مع الباحث يحيى عبد اللطيف حول «تجديد علم الكلام عند

57 وحيد الدين خان»

المُحاور: د. يحيى عبد اللطيف

مجري الحوار: أ. رضا بن رجب

- رسالة من رسائل في التصوف لسليل الخطباء وكبار الشيوخ والأولياء 63
- التعريف الوجيز بكتاب التهجي من الألف إلى الياء 69
- بقلم الاستاذ صالح العود
- ارحموا غربة القرآن الكريم 72
- بقلم الدكتور محمد التهامي الصراق
- ارحموا غربة القرآن الكريم 72
- مفاهيم إسلامية : ضرورة تقوية الإحساس بشرف الانتماء للأمة وتاريخها لدى
- الأجيال الصاعدة 76
- بقلم الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله
- (أبك !!!) ... رسالة إلى طفل غزاوي ! 79
- نمر : إبراهيم علي الرسو - ليبيا
- من فوائد المحظرة : مسائل نحوية مفيدة 80
- بقلم الاستاذ محمد بن سيد أحمد بن صلاح
- المتوسل والمتبرك والمستغيث ليس بكافر عند أعلام مدارس المذاهب
- السنية الأربعة 82
- بقلم الاستاذ أحمد العكرمي
- خطبة الجمعة : التحذير من الكذب 89
- لماذا الحيفُ العريض والاستنقاص بحقّ اثنين من كبار مفكرّي عصرنا الحديث 93
- بقلم : صالح العود / فرنسا
- في الراحلين إلى دار البقاء: الدكتور أحمد طالب الابراهيمى رحمه الله 94
- يسألونك قل 100
- بقلم الشيخ محمد الحبيب النفطي
- سامحني يا رب 102
- بقلم صالح الحاجرة

الافتتاحية

الأثر الإيجابي للتجانس الديني في بلاد الغرب الإسلامي وضرورة دعمه والحفاظ عليه

ان الدارس لتاريخ هذه الربوع من العالمين العربي والإسلامي التي تعرف ببلاد الغرب الإسلامي الممتد من مصر مرورا بليبيا وتونس والجزائر والمغرب وصولا إلى بلدان جنوب الصحراء في غربي افريقيا ومعها بلاد الأندلس قبل سقوطها بين (الصلبيين) يسلم بان أهل هذه الربوع اجتمعت لها خصوصيات دينية هي وحدة الدين والعقيدة والمذهب والطريقة في السلوك والتي عبر عنها أدق تعبير ابن عاشر رحمه الله في منظومته (في عقد الاشعري وفقه مالك وطريقة الجنيد السالك)

وقد جاء هذا التجانس بين أهل الغرب الإسلامي ملائما ومنسجما مع ما جبلوا من وسطية واعتدال وسماحة وواقعية رسختها فيهم رسالة الإسلام التي تلقوها منذ فجر الإسلام وعهده المبكر في النصف الأول للقرن الهجري الأول على ايدي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم ومن جاؤوا من بعدهم من التابعين وتابع التابعين في سند ظل متصلا إلى زمننا الحاضر

فكانت عقيدة ومذهب وطريقة أهل الغرب الإسلامي هي عقيدة ومذهب وسلوك إمام دار الهجرة مالك بن انس رضي الله عنه الذي شد الرحال للتلمذ له والتلقي عنه اعلام القيروان من أمثال اسد بن الفرات وسحنون وقبلهما علي بن زياد راوي الموطا والذي انتصب للتعليم في جامع الزيتونة المعمور الذي ظل منارة وكعبة علمية يشد إليه طلبة العلم من مختلف الأقطار والامصار وبالخصوص من البلاد المجاورة في المغربين الأوسط والأقصى وما وراءهما ثم ما لبث جامع الزيتونة ان تعزز بشقيقه جامع القرويين في فاس وبمعاهد التعليم في بجاية وتلمسان ومحاضر بلاد شنقيط وتمبكتو ومعها حواضر بلاد الأندلس (وفي هذا العدد من المجلة قسم أول من بحث كتبه الأستاذ عبد الوهاب أبو سليمان الأستاذ بجامعة أم القرى وعضو هيئة كبار العلماء رحمه الله شارك به في مناسبة الاحتفال بذكرى مرور ثلاث عشر قرنا على تأسيس جامعة الزيتونة واحتفالية مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية) رأينا ان ننشره تباعا ونعمم به الفائدة لمن فاته الاطلاع عليه فقد ارخ به صاحبه للتواصل الممتد إلى بداية القرن الأول بين الحرمين الشريفين وجامع الزيتونة المعمور.

ان هذا التاريخ العلمي المجيد التليد والذي كان له الأثر على أهل الغرب الإسلامي نهضت لترسيخه ونشره تلك القلاع العلمية الآنفة الذكر التي وان ضعف عطاؤه البعض منها في العقود الأخيرة كما وقع بالنسبة للزيتونة لأسباب لا يتسع المجال لتفصيل القول فيها فان السند العلمي في أجزاء أخرى من بلاد الغرب الإسلامي لا يزال متواصلا والحمد لله في زوايا جنوب الجزائر في ربوع بلاد توات (في ادرار وما جاورها) وفي جنوب المغرب (في بلاد سوس) وفي مدارس التعليم العتيق وكذلك في حواضر بلاد شنقيط وتنمبكتو وصولا إلى خلاوي تشاد فلا تزال علوم الزيتونة والكتب التي كانت تدرس في رحاب الجامع الأعظم على ايدي علما يه الاعلام والذين كانوا نجوما في سماء تونس وما وراءها - لا تزال والحمد لله - بقية باقية هناك من يتواصل بهم علم سحنون وابن أبي زيد وابن عرفة رحمهم الله واجزل ثوبتهم والذي يعد سماحة الشيخ الإمام الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - آخرهم وامتد به وعلى يديه امتد به السند علم مقاصد الشريعة الذي برز فيه ويكاد يختص في التبحر فيه والاضافة إليه علماء الغرب الإسلامي من الشاطبي إلى ابن عاشور إلى علال الفاسي رحمهم الله إلى العلامة عبد الله بن بية حفظه الله ونفع به.

إنّ التعرض إلى خصوصيات بلاد الغرب الإسلامي دفعنا إليه في افتتاحية هذا العدد من مجلة جوهر الإسلام والتذكير به المرة نلو المرة ما تعيشه هذه الربوع من غزو عقدي ومذهبي وسلوكي مدعوم ماديا وبشريا يستهدف الخصوصية الدينية لبلاد الغرب الإسلامي التي جربت فصحت واثمرت خيرا عميما ظل يرى في اجلى مظاهره وا شدها تعبيرا عن جوهر الدين ولبه لدى ممارسة شعائره وهي الصلاة في بيوت الله (من طبرقة إلى بن قردان) وانظر إليها اليوم كيف تؤدي انها فسيفساء وياليت من يأتونها بتلك الكيفيات التي لا عهد للناس بها ليتهم يقومون بذلك عن علم ولكن اين هم من العلم وزادهم منه لا يكاد يذكر ولكنه التقليد الذي زادت الوسائط الالكترونية والفضائيات طينته بلة وأمره انتشارا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

اخترت أيها القارئ أن يكون هذا الموضوع (الأثر الإيجابي للتجانس الديني في بلاد الغرب الإسلامي ووجوب دعمه والمحافظة عليه) افتتاحية لهذا العدد (5/ 6س 24) نظرا لأهميته تاركا استعراض ما تضمنه من بحوث ودراسات متنوعة وأبواب قارة ومتابعات لما يجده القارئ في الفهرس والحمد لله أولا وآخرها وبه نستعين على القيام بما يرضيه

رئيس التحرير



تفسير آيات من القرآن الكريم بقلم الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله

يقول الله تبارك وتعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ سورة الشورى صدق الله العظيم.

هذه الآيات من سورة الشورى ولربط الآيات ببعضها نذكر بما سبقها من مسألة بسط الرزق لعموم الناس وما ينشأ عنه من بغي وفساد. ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ وإن من أعظم أسباب الرخاء وأوضحها وإبسطها وأعمها مسألة نزول المطر الذي هو رحمة من الله لعموم خلقه من إنسان وحيوان بل وللأرض أيضا ولذلك سمي المطر بالغيث لما فيه من معنى الإغاثة والإعانة وهو من أعظم آثار رحمة الله لأنه يحيي الأرض بعد موتها فتتهز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إنه وحده القادر أن يشمل بخيره كل الكائنات ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾؟ لا يستطيع إنسان ولا ملك ولا جن أن ينشر النماء والخير والرحمة إذا أمسكها الله ولا أن يمسك شيئا من ذلك إذا أراد الله إرساله رحمة منه تعالى بمخلوقاته الضعاف. وإن نعمة المطر وحدها لتدل دلالة لا لبس فيها ولا غموض على وجود هذا الاله القدير وعلى تفرد بالتصرف المطلق والرحمة الشاملة إذ أن الإمكانات البشرية

مهما عظمت وتقدمت فلن تستطيع أبدا ان تغني الإنسان عن المطر ولا أن تتحكم في إنزاله، وتكفله سبحانه وتعالى بإنزال غيثه وعونه في ساعات الضيق والحر واليأس يكون الولي الوحيد لعموم خلقه المتكفل بجميع حاجاتهم ويكون المستحق للحمد والشكر وليس المطر وحده آية ودليلا على الوهية وعظمته بل هناك براهين أخرى ناطقة تدل على عظمة الصانع وقدرته وجلاله (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ). هذه العوالم الفسيحة الارعاء المترامية الأطراف التي أصبح إنسان اليوم يدرك مدى ابعادها وما فيها من عجائب وأسرار خصوصا بعد محاولاته لارتياذ الفضاء والكواكب الأخرى تدل على عظمة المبدع المكون وعلى قدرته التي لا تحد وعلى علمه الذي أحاط بكل شيء فمن العته والجنون أن يتسرب الشك إلى أي عقل في قدرته على جمع الخلائق كلها في صعيد واحد وفي يوم واحد ليجازي كل واحد بما يستحق، انه على هذا الجمع والإفناء والاحياء لتقدير فما خلقنا وبعثنا وجمعنا لديه إلا كنفس واحدة، ومن أجمل ما ترمز إليه هذه الآية إمكان الاتصال بين أهل هذه العوالم وعدم تقييده بزمن معين ولا بمكان معين، بل قيده الوحيد هو المشيئة الإلهية وهي مشيئة لا يتصرف فيها سواه وبذلك نستطيع أن نخرس السنة المتشدقين برجعية الإسلام ونفند دعاويهم الكاذبة، وإذا تحقق لدينا كل هذا وآمنا به إيمانا عميقا منشأه المشاهدة والاكتناه والتدبر سهل علينا بعد ذلك أن نعتقد جازمين أن جميع ما نقع فيه من مصائب وشرور ناشئ كله عن سوء تصرفنا في ملكاتنا الفطرية والعقلية وعن تنكبنا لجادة الهدى في عناد وإصرار وجحود ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أجل لو لا عفوه وحلمه وجوده لهلك كل من على ظهر الأرض بصنيع أيديهم وبتصرفات عقولهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيد أن رحمته سبقت غضبه وهي شاملة وعامة لا محابة فيها ولا تقسيط ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وان تلك المصائب التي تنزل بالعباد في الدنيا ليست إلا لتعظيم الأجر أو لتكفير الذنب إذا ما كانوا من المؤمنين بالله المعترفين له بوحدة التصرف المطلق أما إذا كانوا من الجاحدين والعابثين فقد تكون تأديبا بالنسبة للأفراد وانتقاما بالنسبة للأمم.

ولقد علمتنا النواميس الإلهية أن غلطات الفرد والجماعات بل وكفرهم وجحودهم كثيرا ما تقابل بعفو وتجاوز من قبل المولى سبحانه وتعالى أما إفساد

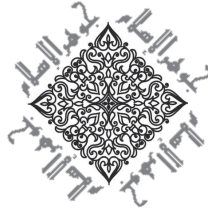
الأمم وعتو الأقوام فانه يقابل بالضربات القواصم وبالتتير والهلاك ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَارَةً وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ وان التاريخ لخير شاهد على صدق هذه الظاهرة الاجتماعية التي لا تكاد تتخلف في شكلها ونوعها إذ كانت قبل مجيء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تبدو في الخسف والزلازل والطوفان والجراد وغير ذلك من الآفات المبيدة ثم أصبحت بعد مجيئه صلى الله عليه وسلم تظهر في أشكال اللطف واخف فلا تصل إلى المسخ والانمحاق والزوال ولكنها تجيء في الفقر والاجاحة والهوان والغلبة وتمزق الشمل واندثار القيم وما إلى ذلك مما لم تسلم منه آية امة انحرفت عن الجادة وتنكرت للفضيلة وعشت بالقيم الأخلاقية العليا ومن هنا كان لزاما على كل عاقل أن يكون من نفسه ومن نفوس أهله بالمرصاد حتى لا يعمهم الشر ولا يشملهم الهلاك، وليعلم كل مؤمن أن المصيبة التي تنزل به إذا ما قوبلت بصبر وشكر كانت خير مغنم يغنمه وأفضل مكسب يتحصل عليه ان الإيمان كما قيل نصفه صبر ونصفه شكر وحيثنذ قبل التعويض العاجل والاجل يكون قد محص إيمانه ورسخه ودعمه ومن رسخ إيمانه فلن يفشل في غاية ولن يخيب في مؤمل ولقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياها حتى الشوكة يشاكها» وعندما نزلت هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال صلى الله عليه وسلم (والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر) وروى الترمذي وغيره عن علي كرم الله وجهه قال (أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ؟) حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال (وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه) وإنها وأيم الله لأعظم بشرى تزف للمؤمنين الصادقين إذ الرحمة قد شملتهم جميعا والحمد لله وكيف لا تشملهم وهو الذي حُبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان واختارهم من بين سائر خلقه أن يكونوا من الراشدين غير أن هذه الخطوة يجب أن لا تصل بأصحابها إلى درجة الغرور والتواكل... فيطلقون لأنفسهم وشهواتهم العنان بدون خجل لان ذلك بداية مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ثم لا تعزب

عن أذهاننا مسألة التبعات وحقوق الناس فان التشديد على صيانتها وعدم التجاوز عنها من البديهيّات التي لا تخفى عن واحد ولا يمكن أن ننسى أبداً أن كل قوى عتيد هو أمام الله ضعيف لا يقدر على شيء... وأن احتماء الإنسان بالإنسان بل وبجميع وسائل القوة لا يغني فتيلاً إذا نزل قضاء الله ونفذ حكمه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ولا ولي ولا وقاية ولا درع إلا هو سبحانه وتعالى لا ملجأ منه إلا إليه وكل قوى أمامه ضعيف وكل عزيز بغيره ذليل فالعاقل اللبيب هو ذلك الذي لا يتعامل مع غير الله على حساب الله

ثم يستمر سياق الآيات في استطراد عجائب صنع الله وطرائف قدرته التي تدل على الوهيتة وعظمة سلطانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنَّ يَسَاءُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إنها آية يدركها رجال البحار أكثر من سواهم فما تلك الخاصية التي أعطيت للماء ليحمل على سطحه ما يعلوه من سفن وبوارج إلا من رحمته بخلقه. ان البحر لمخلوق جبار تتصاعد أمواج محيطاته فترى كالجبال الشوامخ وفي تلك الحالات تكون أعظم باخرة فوقه كما وصفها عمرو بن العاص (الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود وراكبه دود على عود) ولو شاء ربك لابتلع البحر كل شيء أو لثارت ثائرتة على اليابس فغمره ولو شاء أيضاً لآزال منه خاصية الحمل والدفع... ولكنه لطيف بعباده فلا يهلكهم بما كسبوا لأنه عفو يحب العفو

فليعلم كل من يجادل في آيات الله هذه انه لا مهرب من قضائه وقدره وأن القوة البشرية مهما عظمت ان هي الا ظل للقدرة الالهية وبها تتصرف لان خاصية كل شيء أعطيت له بفضل الهي كبير ولو شاء الله لجرد النار من خصائصها ولجرد الماء من خصائصه ولما كان الطعام يشبع ولا الماء يروى ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّنْ مَّحِيصٍ﴾ اجل أين يجدون المحيص والمفر وهو الذي يسد جميع المسالك متى أراد وكيفما أراد وهو الذي يحبس أنفاس الأقوياء الشداد أو يعطل بعض المجاري الصغيرة في الهيكل البشري العظيم فإذا بصاحبه المتشامخ بأنفه بالأمس المتعاضم بحوله وطوله منذ برهة قصيرة اضعف من بعوضة أو هبأة. فأين المفر من قبضة الجبار العظيم؟!.

اللهم لا ملجأ منك إلا إليك. ولا حول ولا طول إلا بك فسبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.



«الخطاب الإسلامي بين القواطع والاجتهادات»

القسم الاول

بقلم العلامة الشيخ عبد الله بن بية

رئيس منتدى ابو ظبي للسلم

الخطاب هو: فعال مصدر من خاطبه خطاباً ومخاطبة. وهو يعني كلاماً موجهاً إلى طرف آخر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا) ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾

والخطاب عند الأصوليين حسب عبارة الزركشي في البحر المحيط عرفه المتقدمون: بَأَنَّهُ الْكَلَامُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ إِفْهَامٌ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِلْفَهْمِ. وَعَرَفَهُ قَوْمٌ بِأَنَّهُ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَنْ قَصَدَ إِفْهَامَهُ مُتَهَيِّئًا أَمْ لَا. قِيلَ: وَالْأَوَّلَى أَنْ يُفَسَّرَ بِمَدْلُولٍ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ.

وهو في الاصطلاح الغربي: شرح شفوي يتعلق بموضوع معين يوجه إلى الجمهور، وهو عبارة عن مجموعة المظاهر القولية والمكتوبة التي تمثل إيديولوجية.

وقد ينقسم إلى مستويات كثيرة، هي عند فوكو Michel Foucault خطاب متغير وخطاب ثابت، فالأول هو خطاب الناس اليومي المعتاد، الذي يفنى وينقضي بانقضاء زمنه، والثاني هو خطاب يتردد في حياة الناس ولا ينقضي، كالخطاب الوارد في الكتب المقدسة.

كما عبروا عن مستويات الخطاب بأنها ترجع إلى موضوعاته، ومصادره، وفحواه، ومحتواه، فمنه الخطاب الديني، والخطاب الفلسفي، والخطاب الأخلاقي،

والخطاب القانوني، والتاريخي، والخطاب الاجتماعي السياسي، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب.

والخطاب الإسلامي بالنظر لشموله يحتوي كل هذه المناحي، باعتبار عموم مفهوم الدين وكونيته، التي تلج كل مجالات الحياة، ليس بالمعنى الضيق الكنسي للدين الذي يقابل العقل، ولكن بالمعنى الواسع الفسيح الذي يجعل كل نشاط -إنساني وجداني أو عقلي أو سلوكي بمختلف تعبيراته النافعة موزوناً بميزان القيم ومصالح العباد- من الدين.

وحيث أنَّ البحث يتعلق بالخطاب الإسلامي في جوهره، في قواطعه واجتهادياته، في ثوابته ومتغيراته، فينبغي أن نقرر أنَّ الخطاب الإسلامي مبني في أصله على خطاب الله تعالى لعباده، فهو تقديم لمضمون الخطاب الإلهي إلى البشرية، سواء تعلق بالكليات أو الجزئيات، أو بالشكل أو الأساس، أو بالوسائل أو بالمقاصد. وهنا تكون القواطع والاجتهادات الظنية.

ومعلوم أنَّ خطاب الله تعالى للعباد ينقسم إلى نوعين، خطاب إخباري يجب الإيمان بمقتضاه، كإخباره عن ذاته وصفاته وعن الكون من سموات وأرض وملائكة وجن وعن الآخرة وما فيها من جنان ونيران وحساب وميزان وثواب وعقاب.

وخطاب يتعلق بأفعال المكلفين من حيث إنهم به مكلفون، فهذا هو الذي يسمى بالحكم وينقسم إلى خطاب تكليف وخطاب وضع؛ لأنه إما أن يكون طلباً أو تخيراً أو وضعاً، على التفصيل المعروف عند الأصوليين.

فالقواطع من الخطاب -سواء تعلق الأمر بالأخبار أو الأحكام- هي ما كان دليلها قطعياً، وغير القواطع هي ما بني على اجتهادات وظنيات.

يقول الاصفهاني في شرح المحصول: من الأحكام ما يثبت بأدلة حصل العلم بمقتضاها، وذلك في الأحكام الثابتة بنصوص احتفت بقرائن تدفع الاحتمالات المتعارضة عنها، بانحصار تعيين المدلول في واحد. ومنها ما ثبت بأخبار آحاد، أو نصوص لم تعترض بما يدفع الاحتمالات، فتلك الأحكام مظنونة لا معلومة، قال: هذا هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وذلك بسبب انقسام الطرق إلى الأدلة والأمارات.

ويرى ابن دقيق العيد أنَّ الأحكام تنقسم إلى متواترات وهي مقطوع بها وإلى ما ليس كذلك.

والحق انقسام الحكم إلى قطعي وظني، وممن صرح بذلك من الأقدمين الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب «الحدود» وابن السمعاني في «القواطع». ولشرح ما أشار إليه الأصفهاني من كون القواطع تنشأ عن أدلة يحصل بها القطع. فلا بد من لمحة هنا عن الأدلة القطعية، التي إذا ثبت خطاب أو حكم بها يكون قاطعاً.

إنَّ الأدلة القطعية من حيث الدلالة هي نصوص من الكتاب والسنة، لا تحتمل التأويل، ومن حيث الثبوت قطعية الورود؛ لأنها في القرآن الكريم بين دفتي المصحف، أو في متواتر الحديث، على الاختلاف المعروف في حده، أو الإجماع النطقي، المستند إلى دليل من الأدلة القطعية، ويشترط في الجميع الخلو عن المعارض القوي الذي ينهض حجة.

وهناك ما هو قريب من القطعي كالمستفيض، إذا رواه أربعة فما فوق أو اشتهر، وكخبر الآحاد السالم من العلل، المروي في الصحيحين عند بعض العلماء، وقد ندد إمام الحرمين في البرهان بقاتل ذلك في خبر الآحاد ببداهة احتمال الخطأ على رواية العدل.

وكالعام المتكرر عند الشاطبي، وكالكلي المستفاد معناه من معقول النصوص، المشهود له بتفاريق الأدلة، وبشتى القرائن الحافة، والإجماع السكوتي على خلاف، مع الخلو عن المعارض، وكذلك قياس الأولى، أو المساوي، إذا كان مستند الأصل قطعياً.

وجود جامع به متمماً شرط وفي القطع إلى القطع انتمى

بهذه المقدمة يراد إثبات نوعين من الخطاب، لا ترجع إلى القسمة المعهودة للخطاب بين خطاب تكليف وخطاب وضع، وإنما ترجع إلى مرتبة الدليل، ودرجته، قوة وضعفاً، ووضوحاً وغموضاً، تواتراً أو انفراداً، شيوعاً واستفاضة أو خمولاً وزمانة. فيكسب الدليل القوي المتواتر الواضح مدلوله قوة وقبولاً وشمولاً يرفعه من درجة العمل بمقتضاه إلى مكانة تحتم الاعتقاد بمحتواه وذلك ما علم من الدين ضرورة. وهذه هي القواطع التي تمثل أساس بناء هذا الدين ومركزاته ودعائمه.

فالأساس هو الإيمان وما يجري مجراه وما يتعلق بمقتضياته.

أما الدعائم فهي تلك الأركان التي ترفع سقف الدين فهي برهان الإيمان، وتفاوت بعد الأساس والدعائم مشمولات البناء التي تمثلها أحكام الشريعة الغراء حيث

تشكل منظومة كاملة وشاملة لمناحي الحياة موزعة في مختلف المهمات، وموجهة إلى مختلف المرامي والغايات، متناغمة في اختلافها، متجانسة في تنوع أهدافها. فقواطع الخطاب الإسلامي إنما هي تذكير دائم بالأساسيات القطعية في الإسلام اعتقاداً وسلوكاً ومعاملة.

قد لا تكون هناك ضرورة لذكر الأدلة من الكتاب والسنة، وأقوال الأئمة المعروفة والمتداولة في مختلف المصادر، وإنما التذكير بكبريات قضايا هذا الدين، الذي يقوم على التوحيد ومقتضياته، والنبوة ولوازمها، وتكريم الإنسان وتكليفه، والمحافظة على ضروراته لإيجاد توازن بين الدنيا والآخرة، وبين الروح والجسد.

إيمان بعالم الغيب لا يُلغي عالم الشهادة، الذي يقوم دليلاً وبرهاناً على عالم الغيب، ومعبراً إليه ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾.

القواطع الكبرى

تمهيد: إنَّ معظم القواطع كانت في القرآن المكي فيما يتعلق بالأصول العقدية، قال الشاطبي: وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان، أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى.

أحدها: تقرير الوحداية لله الواحد الحق، غير أنه يأتي على وجوه؛ كنفى الشريك بإطلاق، أو نفية بقيد ما ادعاه الكفار في وقائع مختلفة من كونه مقرباً إلى الله زلفى أو كونه ولداً أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة.

والثاني: تقرير النبوة للنبي محمد، وأنه رسول الله إليهم جميعاً، صادق فيما جاء به من عند الله؛ إلا أنه وارد على وجوه أيضاً كإثبات كونه رسولا حقاً، ونفي ما ادعوه عليه من أنه كاذب أو ساحر أو مجنون أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم.

والثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة، وأنه حق لا ريب فيه، بالأدلة الواضحة والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به فرد بكل وجه يلزم الحجة ويبكت الخصم ويوضح الأمر.

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر، وما ظهر ببادي الرأي خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب والأمثال والقصص وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك.

وطبق ذلك الشاطبي على سورة المؤمنين قائلا إنها: «افتتحت بثلاث جمل: إحداها: -وهي الأكّد في المقام- بيان الأوصاف المكتسبة للعبد التي إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه، وذلك قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ... إلى قوله: هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. والثانية: بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذي حصل له جارياً على مجارى الاعتبار والاختيار، بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على من هذا حاله سبيلاً. والثالثة: بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به في التربية والرفق والإعانة على إقامة الحياة، وأنّ ذلك له بتسخير السموات والأرض وما بينهما وكفى بهذا تشريفاً وتكريماً).

قلت: بعد ما تقدم يظهر لي أنّه يمكن استنباط القواطع من قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ) لتتحدث عن ثلاث قواطع:

أولاً: الرحمن (الألوهية والتوحيد) ثانياً: القرآن (الرسالة والنبوة) ثالثاً: الإنسان (مناط خطاب التكليف وحمل الأمانة والخلافة).

القاطع الأول: توحيد الله تعالى الخالص

وما يتعلق به من قدرة وقدر وعلم ورحمة ورزق وخلق ونفع وضرر إلى آخر الصفات.

فالخطاب في هذا المجال على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: خطاب التوحيد الموجه إلى المسلمين وإنما يراد منه أن يتمسكوا بالتوحيد الخالص الكامل طبقاً لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون تشكيك في عقائد المسلمين ونواياهم.

وفي سياق هذا الخطاب تجب الإشارة إلى شيئين هما: أن تكون دعوة التوحيد مقرونة بالإحسان الذي هو قرين الإيمان مما يعني أن تكون التربية الإيمانية الروحية الرامية إلى تطهير النفوس والارتقاء بها في مدارج التوكل والرضا والزهد والحب حاضرة.

أما الشيء الثاني فهو: العمل، فالإيمان قول وعمل، عبادة ومعاملة، فذلك أدنى إلى الهدى النبوي وأنّى عن الجدل والمراء الذي لا يجدي فتيلاً.

المستوى الثاني: الدعوة الموجهة إلى أتباع الديانات السماوية السابقة، وهي تذكير لهم بما في كتبهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾
إنه تذكير دائم بأن رسالة التوحيد هي رسالة كل الأنبياء، وأنه عليه الصلاة والسلام إنما هو مكمل لسلسلة الأنبياء، و متمم لمكارم الأخلاق.

وبهذا الصدد تمكن الاستعانة بما في كتبهم كقول عيسى عليه السلام في أنجيل مرقس: إن أول الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد. وتحب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى.) إلى غير ذلك من النصوص الواردة في العهد القديم والجديد.

المستوى الثالث: خطاب موجه إلى سائر الأجناس واللا دينيين انطلاقاً من قوله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهذا الخطاب -وكل خطاب- يجب أن يعتمد على المنطق والعلم والأدلة الكونية والمنهج القرآني ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.
لقد كان محمد بن أبي زيد القيرواني موفقاً عندما قال في عقيدته: نبهه بآثار صنعته واعذر إليه على السنة المرسلين....».

ومعنى كلامه أنه سبحانه وتعالى أقام على وجوده ووحدانيته دلائل من كونه، الذي أبرز فيه بالغ حكمته، ودقيق صنعته، ودليل عنايته، وهي دلائل يتلقاها العقل المركب في الإنسان وكأنها كلام ينطق، وضوء يشرق، فتنتبه الفطرة الإنسانية إلى التشوف للخالق.

فتتدخل العناية الإلهية ببيان الوحي الناطق على السنة رسله، الذين أيدهم باسمى آيات الصدق، فقامت في نفوسهم وفي نفوس من باشرهم معان اضطرارية بصدق أخبارهم، وسطوع أنوارهم، فكان حديثهم عن الغيب كحال الشاهد الذي لا يتمارى أحد في صدقه، يحدثك عن مدينة لم ترها فتصدقها؛ لما عرفت قبل ذلك وجربته من صدق لهجته.

والإيمان بالله يقتضى الإيمان بدعائم الإسلام الكبرى المتواترة، من صلاة وزكاة وصيام وحجّ إذ تلك قواطع معلومة من الدين ضرورة.

ولكل مستوى من هذه المستويات أسلوبه في الخطاب ووسائله.

وهو خطاب يرد كل الشبهات والمتشابهات إلى المحكمات، ككون عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فإنه يُرد إلى أصل التوحيد المحكم، وهو أن كل ذلك بقدرة الله تعالى وإذنه.

وهكذا فإن كرامات الأولياء وخوارق العادات لهم أمر واقع ومقبول عند المسلمين؛ لكنه مردود إلى الأصل الثابت وهو قدرة الباري فهو سبحانه جل وعلا الخالق لذلك والمقدر له ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

القاطع الثاني: النبوة ولوازمها

وهذا القاطع الثاني يستلزم الإيمان بظاهرة الوحي، الذي هو اتصال إلهي بالإنسان المصطفى، لاطلاعه على جملة من الحقائق، وإبلاغه برسالة إلى البشرية هي مراد الخالق من الخلق، تبين له أساسيات فوق سقف العقل؛ إلا أن العقل لا يحيلها فالوحي وحده هو الذي يعرفه على الخالق جل وعلا، وما يجب في حقه جلت قدرته، وعلى شرائعه وعلى أصل الكون، ومصير البشرية، وأحوال الآخرة والبعث والنشور، وأحوال البرزخ وفتنة القبور والاختبار فيها وأخذ صحف الأعمال بالأيدي على ما يصف القرآن، ووزن الأعمال يوم القيامة والعبور على الصراط والورود على حوض رسول الله ﷺ - سقانا الله تعالى منه - كما نؤمن بالملائكة وبالجن وبالسحر، وبكل ما ورد به الخبر الثابت، فالأبصار والأسماع محدودة الإدراك في هذه الدنيا.

بل إن العلوم الكونية فهي كما يقول بحق عالم الفيزيولوجيا -وظائف الأعضاء- الفرنسي كلود برنار في القرن التاسع عشر فإنها إنما تعرف العلل الثانوية، كما يحكيه عنه تلميذه.

تلك هي الحقائق الكبرى التي جاءت بها الرسل، والإسلام يؤكد أن رسالة الرسل هي في جوهرها واحدة ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

وهو عليه الصلاة والسلام إنما هو حلقة خاتمة لسلسلة الرسالات ومتمم لكلمات الله تعالى (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

ورسالة الرسل تقوم عليها دلائل المعجزات : «فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». حديث صحيح.

وأهم دليل على صدق النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم القرآن الصادق، الذي تضمن الرسالة والدليل في نفس الوقت والدعوى والبينة، فكان تحدياً للبشرية بنظمه وبمعانيه وأخباره التي لم يزلها الزمان إلا جدة وصدقاً، فلم يأت أحد بقرآن يتلى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ محفوظ في الصدور والسطور، فلم تستطع يد الدهر أن تسطو عليه، يخرج خب الضمائر وينفذ إلى خبايا النفوس.

وهذا الإعجاز العلمي في هذا العصر دليل على أنه من عالم الغيب والشهادة. فآية أطوار الإنسان ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ...﴾ وآية الناصية وآية الأصل الدخاني للكون وآية الرتق. كل تلك أدلة لا ريب فيها على صدق القرآن، وقد صدق العلم الحديث ما جاء في القرآن.

ولقد أقام الباري جل وعلا الدليل على النبوة في الإنسان نفسه ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وذلك بواردات استشعار الأحداث خارج السياق المعتاد؛ لإدراك الموجودات وذلك من خلال الرؤى التي لا يتمارى أحد في وقوعها، والتي تقدم الأحداث مرموزة تفسرها الوقائع أو يفك شفرتها من له علم من الكتاب.

وأحيانا تقدم المشهد الذي سيكون كما هو فيكون، ولقد نبّه عليه الصلاة والسلام على الرؤيا في الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري وغيره فيه: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وقد اضطرب شراح الحديث في المراد بهذه التجزئة، وفسرها بعضهم بفترة النبوة قبل الوحي، وسكت البعض الآخر، ويمكن أن تفسر -والله أعلم- بأن الجزء يشير إلى أن النبوة تشتمل على معان كثيرة، وأن الرؤيا في كشفها للحقيقة الغيبية واستيعابها لها بوضوح تمثل هذا الجزء الصغير من حالة انكشاف المغيبات والوضوح والصدق، فهي مثال للاطلاع والصدق؛ لكنه ضعيف لا يرقى إلى الاطلاع الواضح للنبوة كما لا يجب الاعتقاد به فقد يتطرق إليها الوهم والخطأ والضبابية ما لا يتطرق إلى انكشاف الحقائق في حالة النبوة، ما لم تكن رؤيا نبي من الأنبياء فإنها حق سواء كانت مرموزة كرؤيا إبراهيم إنه يذبح ولده فكانت ابتلاء لتصدق على كبش عظيم يكون سنة وقربة إلى الله تعالى في الغابرين ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ

فِي الْآخِرِينَ ﴿ أَوْ رُؤْيَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ أَوْ رُؤْيَا دَانِيَالَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي لَمْ يَتَأَكَّدْ شَرَاهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهَا.

أما رؤى نبينا عليه الصلاة والسلام وهي التي بدأ بها الوحي فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

وكثير من الرؤى من غير الأنبياء كانت صادقة وصحيحة كرؤيا ملك مصر الواردة في القرآن الكريم التي فسرهما يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾.

ورؤيا الموبدان قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام رأى إبلا صعباً تقود خيلاً عرباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم.

ورؤيا الرئيس الأمريكي إبراهيم لنكولن الذي رأى أنه قتل وسجل ذلك فكان كما رأى.

والكثير من الناس قد رأى أو سمع في نومه، إنها شهادة للنبوة قائمة في الإنسان، لأن الرؤيا في بعض صورها خارج دائرة الحس والعقل وما زالت محيرة، رغم تفسير العلم الحديث لها بأنها: ظاهرة نفسية ترد في حالة النوم». ولهذا يقول الفيلسوف الفرنسي الشاعر بول فاليري: إن الرؤيا هي فوضوية لأننا لن نعرفها أبداً إلا بالذكرى،

Le rêve est une hypothèse puisque nous ne le connaissons jamais que par le souvenir.

يجب أن نؤكد دائماً على إمكان النبوة:

ومن مستلزمات النبوة العصمة التي تنافي الكذب والخطأ في البلاغ، مع وجوب الاعتقاد والافتداء ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾.

وكذلك فإن من مستلزمات ذلك أن لا تكون العصمة لغير النبي؛ إذ من شأن ذلك أن يوجد مصدراً للوحي غير المصدر النبوي، وهو مناف للعصمة الخاصة ومؤد إلى انتشار المصادر.

فمن العقائد أنه لا قول لأحد مع قوله الثابت جزماً، الواضح دلالة حتماً، ولهذا فقد تبرأ الأئمة المقتدى بهم من مخالفة ما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام في عبارات قوية وحاسمة كتلك الواردة عن مالك « كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا كلام صاحب هذا القبر.

وكقول الشافعي: إذا خالف قولِي الحديث فاضربوا بقولِي عرض الحائط. وكقول أبي حنيفة: إذا ثبت الحديث فهو مذهبي». وقول أحمد: (ضعيف الحديث أحب إلي من رأي الرجال).

ومن مستلزمات النبوة ومكملات إبلاغ الرسالة الاعتراف بمكانة أصحاب رسول الله ﷺ المبلغين لرسائله والمطابقين لأوامره والمرآة الأمانة التي تراءى من خلالها صورة الرسالة النبوية الشريفة.

ولهذا فإن أي دعوة ترمي إلى تجريح الصحابة حملة الرسالة وأمناء الوحي إنما هي في حقيقتها وفي مثالاتها تجريح في الرسالة يكاد يصل إلى التشكيك فيها. ولهذا فإن تظافر النصوص القرآنية والحديثية في الثناء على ذلك الرعيل في الجملة وفي التفصيل لخير دليل على أن تعظيم جنابهم ورعاية حرمتهم والذب عن حريم حماهم بمكانة من الدين فلنقرأ قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

وقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقوله ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.. إلى قوله: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾

ولنستمع لقوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح: لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل جبل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

وعن أبي بردة قال صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ، ثم قلنا لو جلسنا حتى نُصلي معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: ما زلتُم هاهنا، قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نُصلي معك العشاء، قال: أحسستم أو أصبتم، قال: فرفع رأسه إلى السماء، -وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء- فقال: النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا

ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِّأَمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أَمَّتِي مَا يُوعَدُونَ». رواه مسلم.

وقوله: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُو فِتْنًا مِّنَ النَّاسِ فَيَقَالُ لَهُمْ فِيكُمْ مَن رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ. نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ ثُمَّ يَغْزُو فِتْنًا مِّنَ النَّاسِ فَيَقَالُ لَهُمْ فِيكُمْ مَن رَأَى مَن صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ ثُمَّ يَغْزُو فِتْنًا مِّنَ النَّاسِ فَيَقَالُ لَهُمْ هَلْ فِيكُمْ مَن رَأَى مَن صَحِبَ مَن صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ». متفق عليه واللفظ لمسلم.

إلى ما لا يحصى من الأخبار والآثار.

ولهذا أجمع علماؤنا على تقديم أصحابه e على غيرهم، والكف عما شجر بينهم رعاية لحرمة الرسول ﷺ وحرمة الرسالة، ونأيا بجانب الشريعة عن الطعن، بالإضافة إلى أن لوك تاريخ يفرق الأمة وينشر التفرقة واللعن والسباب لا يفيد الأمة في دينها ولا في دنياها ولا يرضى الله ورسوله، ولهذا فيرد المتشابه إلى المحكم، وبنفس المبدإ فإن آل بيت رسول الله ﷺ لهم عظيم الحرمة وجزيل الإحترام أبناء وبنات وزوجات فقد اذهب الله تعالى عنهم الرجس وجعل حبهم عنوان الإيمان وطهارة النفس ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ولقد أحسن الطحاوي في قوله: ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق».

وكل ما خالف هذا من المتشابهات فيرد إلى المحكمات، فتزد أخبار الأحاد المنافية إلى التواتر، وترد المشتبهات إلى التأويل.

ولهذا فيجب تربية الأمة على أنه لا يوجد تناقض ولا تناف بين حب آل بيت رسول الله ﷺ وحب الصحابة، وأن الأمة المحمدية بريئة ممن ولغوا في دماء آل بيت رسول الله ﷺ وهم فئة قليلة عليها ما اكتسبت من الإثم ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا ما ندين الله تعالى به.

يتبع - البقية في العدد القادم



سيرة الأستاذ العالم، صاحب الفضيلة: السيد أنس القرثوري

(توفي يوم السبت 25 / 12 / 1446 هـ = 21 / 6 / 2025 م)

بقلم تلميذه الأستاذ صالح العود

خدم العلم في محراب العلماء: أكثر من أربعين عاماً... فضلاً عما أثرى به مشواره العلمي والأدبي: إذاعياً وكتابياً.

إن الأستاذ الكبير والاذاعي القدير سيدي أنس بن أحمد القرثوري: من مواليد مدينة صفاقس: (لؤلؤة الجنوب التونسي)، في الثاني من شهر مايو عام 1932 م = 1351 هـ.

كانت بداية تعليمه: حفظه كتاب الله في مسقط رأسه، ثم دخل المدرسة الابتدائية فتعلم فيها القراءة والكتابة؛ ثم التحق بفرع جامع الزيتونة في صفاقس، وبعد نجاحه فيه، رام مواصلة طلب الحصول على العلم، فذهب إلى جامع الزيتونة في تونس العاصمة وانخرط فيه، وظل يتعلم ويغترب من مناهله، حتى إحرازه على شهادة التحصيل العلمية.

وكان من أهم أعلام الزيتونة الذين درّس عليهم، ويُعدّ ذلك عنده من مفاخر الدراسة: فضيلة العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، والشيخ محمد الزغواني، وغيرهما.

ولمّا كان الأستاذ أنس القرثوري طموحاً، وحريصاً على الزيادة من تلقي العلم، سافر إلى مصر ليلتحق بجامعة القاهرة: كلية الآداب، وذلك في عام 1954 م = 1374 هـ، وممن درس عليهم، أو حضر مجالسهم، واستمع إلى محاضراتهم، أعلام مرموقون: مثل: د. شوقي ضيف، الذي صار في فترة من الفترات: عميداً لمجمع اللغة العربية؛ والدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، والدكتور شكري عياد، وغيرهم..

وبعد حصوله على شهادة الليسانس في الأدب العربي من جامعة القاهرة، وقد كان ذلك في عام 1958م=1378هـ، عاد إلى وطنه تونس، ليعمل في سلك التعليم: فدرّس في المعاهد الثانوية: اللغة العربية، ثم تولى في مطلع السبعينات إدارة المعهد الخاص التابع للمنظمة التونسية للتربية والأسرة.

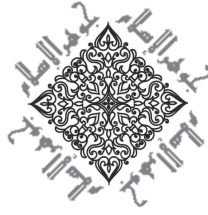
وفي عام 1982م=1403هـ تولى فتح معهد خاص للتعليم الثانوي. ومن أنشطة الاستاذ الكبير السيد أنس القرظوري، قيامه بتقديم: برامج اذاعية: علمية ودينية بإذاعة صفاقس، أهمها وأجلها: برنامج الخالد: في تفسير القرآن العظيم؛ وقد أخرجه بعد ذلك في كتاب بعنوان (التفسير الميسر المبين)، صدر في 4 مج. عن شركة المنى للطباعة والنشر والتوزيع بمدينة صفاقس.

ومن البرامج الناجحة التي قدّمها ذ. القرظوري في إذاعة صفاقس الجهوية: برنامج: (قضايا للبحث) قدّمه بالاشتراك مع الشيخ حسونة الملولي. وللاستاذ الكبير سيدي أنس القرظوري: كتابات عديدة، ومؤلفات جيّدة، وقليل منها مطبوع، وأغلبها مخطوط، منها: كتاب: رسالة إلى من يهّمه الأمر؛ وكتاب: (يوم تبدّل الأرض غير الأرض).

ومن جهود ذ. القرظوري العلمية: اشتراكه في تأليف مجموعة من الكتب التعليمية، للمرحلة الثانوية مع الشاعر الأديب الشهير: مصطفى البحري (رحمه الله). وفي الختام، لا بد لي أن أذكر بعض انطباعاتي عن الأستاذ الكبير سيدي أنس القرظوري. وهذا بلا شك من باب الوفاء لأنني تتلمذت عليه ستين في المعاهد الثانوية: وأشهد، أنّ الأستاذ حفظه الله كان شعلة من العمل الدؤوب، وأنه كان قمة في العلم، والإخلاص، والشفافية، والجدية، قد لا يسبقه أحد إلى تلك الخصائص والمزايا التي كانت عريضة في تلك الفترة: فترة دراستنا في منتصف الستينات الميلادية. ولله الأمر من قبل ومن بعد...

فجرا الله أستاذنا البار في علمه وعمله؛ وأثابه على ما قدّمه لجيلنا الحاضر، من المعرفة التي هي عندي اليوم مشعل، على طريقي في مسيرة حياتي: فأنا اليوم مثله - والحمد لله - إذاعي مرموق، ما يقارب (الثلاثين) عاما، إلا أن الفارق بيني وبينه، أو لنقل بين الأستاذ والتلميذ: أنه في بلاد العرب، وأنا في بلاد الغرب؛ وصدق رسولنا العظيم ﷺ الذي قال: «كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»..

رحمه الله رحمة الأبرار .. وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار.



تجزؤ العدل الدولي والسلام المفقود

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور أحمد الطيب⁽¹⁾

شيخ الأزهر رئيس مجلس حكماء المسلمين

أن مفهوم العدل المطلق هو القاعدة الذهبية التي قامت عليها السموات والأرض، وجعلها الله ضامنة لحقوق الإنسان في المساواة والحرية والكرامة والأمان والسلام، والإخاء الإنساني بين البشر على ما بينهم من فوارق العرق والجنس واللون والدين واللغة. وإن إغفال الحضارة المعاصرة -وعن عمد- لهذه القيم تسبب في الحروب العنيفة التي فرضت على شعوب فقيرة لا تملك من العدة والعتاد ما ترد به أيدي المعتدين من قساة القلوب ومتحجري الضمائر والسّاخرين من كرامة الإنسان، ومن حرمة التي حذر الله من المساس بها في كتبه السماوية ووحيه المقدس، إضافة إلى الأزمات الاقتصادية كالفقر والبطالة والمجاعة، وتقسيم العالم إلى شمال ثري مترف، وجنوب فقير مُثقل بالحروب والمجاعات، وبالديون والأمراض والأوبئة، وأزمات بيئية ناتجة عن استنزاف الموارد الطبيعية، وغير ذلك من منغصات العيش، ومكاره الحياة.

ثم الأزمات الاجتماعية التي تترصد الشعوب وتعبث بعقائدها ومقدساتها وثوابتها الدينية والأخلاقية، ولا تكف عن تربصها بمؤسسة «الأسرة» وتصدير بدائل شاذة تنكرها الأديان والأخلاق، وتنفر منها الأذواق السليمة الصحيحة، وترفضها الفطرة الإنسانية التي توارثها الناس من عهد آدم عليه السلام وإلى يومهم هذا.

وان ما ينقص إنسان هذا العصر هو: «أخلاق العدل والعدالة»، التي أدى غيابها إلى اضطراب شديد في المفاهيم والمعايير الفارقة بين حدود الخير والشر، والحسن والقبح، والصواب والخطأ، حتى صار أمراً مألوفاً أن نرى الظلم وقد تزيّن بزي القانون، والتسلط والهيمنة وغطرسة القوة تفرض على الفقراء والضعفاء باسم النظام العالمي، والمآسي وانتهاك الحرمات يبرر بدعوى المصالح والأغراض.

(1) كلمة فضيلة الشيخ أحمد الطيب شيخ الأزهر في مؤتمر القمة العالمية التي عقدتها جمعية سانت ابجيديو بالعاصمة الإيطالية روما 25 / 27 أكتوبر 2025

وإنَّ لنا في الحروب التي ابتلي بها شرقنا الأمن لعبرة، فهذه الحروب ما إن تبدأ شرارتها الأولى حتى تبدأ معها متواليات من الدواهي والفظائع، من هدم للدور على رؤوس قاطنيها، وتشريد لآلاف النساء والشيوخ والشباب، وتجويع للأطفال حتى الموت، وتمتع بانتهاك كرامة الإنسان، والتَّنكيل به على مرأى ومسمع من العالم المتحضّر في قرنه الواحد والعشرين، وبُست حرية تصادر على الضعيف حقه المقدّس في الحياة على أرضه، وبُست عدالة تسمح باقتراف هذه المنكرات وتسوغها.

ولأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه فقط إنتفضت ضمائر الأحرار شرقاً وغرباً واهتزت أصوات الشرفاء من أحرار العالم نساءً ورجالا وأطفالا وشيوخاً في كثر من أقطار العالم تستنكرها مجازر غزة وفلسطين التي أيكب قلب الانسان وذبحت ضميره وسوّدت صفحة في التاريخ الحديث.

وهذا المشهد الذي يجثم على صدورنا منذ أكثر من عامين - ليكشف عن خلل خطير في بنية النظام الدولي، واضطراب بالغ في سياساته، وأنَّ «السلام الدولي» بات أمره رهناً بموازين القوة وعنفوانها، وتجارة الأسلحة ومكاسبها، والحروب واقتصاداتها، وكل ذلك في معزل تام عن ميزان الحق والإنصاف، وعن صوت الواجب ونداء الضمير، وتوجهات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومنطق العقل الذي جعله الله أعدل الأشياء قسمة بين الناس. وهذه «الأزمات المركبة» إن دلّت على شيء فإنما تدل على اضطراب شديد أصاب النظام العالمي، وأفقدته الاتجاه الصحيح، وجرّاه على الكيل بمكيالين، بل بمئة مكيال إن لزم الأمر، وإن هذه العلة، أو هذا المرض الخلقي الذي أصاب العدالة الدولية في مقتل لا يمكن تفسيره إلا على أساس العنصرية البغيضة، والطغيان في الأرض، وهو ما يتنافى جذرياً مع قوانين «العدل المطلق» الذي أرسى قواعده الإسلام الذي أومن به، بل أرسّته جميع الرسالات الإلهية من قبله، وآمن به كبار الفلاسفة من أفلاطون وأرسطو مروراً بالفارابي وابن رشد، ووصولاً إلى فلاسفة أوروبيين معاصرين، آمنوا بأخلاق الواجب والضمير الإنساني الخالد.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أعرب عن خالص التّقدير للدول التي بادرت إلى الاعتراف بدولة فلسطين، وأحييها على هذه الشجاعة التي تجسّدُ صحوة الضمير الإنساني وانتصاره للحقّ الفلسطيني المسلوب، وكُلُّنا أمل أن يكون هذا الاعتراف خطوةً عمليّةً على طريق تمكين الشعب الفلسطيني من تَبَلُّ حقوقه المشروعة، وفي مُقدِّمتها إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف»، وأعتقد وإنَّ المجتمع الدولي اليوم مجمع على أنَّ حلّ الدّولتين هو الطّريق الأوحد لتحقيق السّلام بالمنطقة والعالم، ولا سلام في الشرق الأوسط بدون إقامة الدولة الفلسطينية، مؤكّداً فضيلته كذلك تقديره لمواقف الشرفاء من أحرار العالم: نساء ورجالا، وأطفالاً وشيوخاً في كثيرٍ من أقطار العالم، الذين اهتزّت أصواتهم لاستنكار مجازر غزّة التي أبكت قلب الإنسان، وذبحت ضميره، وسوّدت صفحة التاريخ الحديث.

«علينا أن نعلم أنه عندما يغيب العدل فإنَّ الظلم يحل محله، ومع مظالم الناس تغيب القيم وتتلاشى، ويفقد الإنسان إنسانيته تحت أقدام المصالح والأطماع المادية الهابطة والاستقواء والاستئساد الكاذب، وحين يسلب الضعيف حقه، ويكرم الظالم على استلاب هذا الحق، وحين يغدو الإنسان رقمًا تافهًا في حسابات السياسة وسلعة رخيصة في اقتصاد السوق، عند ذلك ندرك أنَّ الحقَّ قد غربت شمسُه، وأنَّ العالم يهوي في فراغ أخلاقي ينذر بانهيار الأنظمة قبل انهيار قيمها وأخلاقها».

ولأجل ذلك تحرك الأزهر الشريف، ومجلس حكماء المسلمين، وحاضرة الفاتيكان، لإطلاق وثيقة «الأخوة الإنسانية» التاريخية، التي وقعتها مع أخي الراحل، قداسة البابا فرنسيس، في أبو ظبي عام 2019م. وقد أوضحنا فيها أن السلام ليس أمرًا سلبياً يتمثل في غياب السلاح، فهذا مما لا سبيل إليه بحال، بل هو أمر إيجابي ووجودي يتمثل في حضور العدل، وبيننا أن العدل ليس انتصارًا لطرف على آخر، وإنما هو انتصار للإنسان على نوازع الأنانية والهيمنة والأطماع المادية التي تسيطر على مسرح حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسلوكية.

وقد أصبح الذكاء الاصطناعي إحدى القوى المحركة التي تحدث فرقًا كبيرًا في المجتمعات، ولذا فإنَّ علينا دورًا أخلاقيًا يتمثل في تسخير هذه التقنية لبناء مستقبل أكثر إنصافًا وعدالة للبشرية، وعلينا أن ندرك أنَّ حراسة قيمنا وموارثنا الروحية والدينية في استعمالات هذه التقنية الجديدة ليس خيارًا ترفيحيًا، بل هو التزام أخلاقي، ومسؤولية إنسانية كبرى. ولا أبلغ لو قلت: إننا اليوم نقف أمام مفترق طرق حضاري: إمَّا أن نترك هذا الاختراع الجديد يكرّس التفهقر الحضاري والأخلاقي، أو أن نستخدمه كقوة دافعة لتصحيح المسار الإنساني.

و«قد كنا بدأنا مع صديقنا الراحل البابا فرنسيس، في صياغة «ميثاق» لأخلاقيات الذكاء الاصطناعي، ولكن، وقبل أن يكتمل أمرها، شاءت الأقدار وظروف مرضه ووفاته بأن يتأخر إصدار هذه الوثيقة المهمة، واليوم؛ تعمل فرق مشتركة من الأزهر الشريف والفاتيكان ومجلس حكماء المسلمين من أجل إكمال هذه الوثيقة؛ لتكون مرجعًا أخلاقيًا وإنسانيًا عالميًا ينظم العلاقة الصحيحة بين الإنسان وما تنتجه يداه من تقنيات حديثة، ويضمن أن يظلَّ الذكاء الاصطناعي خادمًا للإنسان لا سيفًا مصلتًا عليه».

وإنَّ العالم اليوم أحوج ما يكون إلى عدالة تعيد إليه سكينته، وإلى إحياء ضمير إنساني يدرك أن الظلم - وإن صغر - شرارة قادرة على إحراق السلم في أي مكان، وأنَّ كل إنسان يُظلم في هذا العالم، هو جرح لا يندمل في جسد الإنسانية كلها، وأنَّ هذا العالم لن ينهض من كبواته إلا إذا آمن بأن العدالة هي القانون الأعلى للحياة، وأنَّ السلام هو ثمرتها الطبيعية، وأنَّ سبب الفساد اليوم؛ الفصل بين الأخلاق والإيمان، ومحاولة الإبقاء على الأخلاق واستبعاد الإيمان، وأنَّ الأخلاق حين تفقد مرجعية الدين الإلهي، تصبح الأخلاق في مهبط الريح، كما تصبح أداة للصراع وللجشع وسحق الفقير والضعيف.



فِي رِیَاضِ السُّنَنِ

الحديث الرابع والثلاثون النهي عن المنكر

بقلم الاستاذ محمد صلاح الدين المستاوي

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم

هذا الحديث أصل من أصول الدين وميزة من مميزات أمة الإسلام التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس قال جل من قائل ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن أسباب خيرية أمة الإسلام هذا النفي للمبالاة وعدم الاكتراث فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم والمسلم يشعر انه عضو في جسد واحد هو هذه الأمة يسره ما يسرها ويؤلمه ما يؤلمها يحب لكل فرد منها ما يحب لنفسه، شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة بمن يركبون سفينة واحدة إما أن تنجو بهم جميعاً أو أن تغرق لا قدر الله بهم جميعاً ومن أسباب غرقها أن يعتمد البعض إلى خرق السفينة ولا يجدون من يمنعهم من هذا العدوان الذي سيتسبب في الضرر للجميع كذلك أمر من يرتكبون المنكر ويتظاهرون بذلك في تحد صارخ للخالق والمخلوق وفي جرأة نسال الله أن لا يؤاخذنا عليها فقد قال جل من قائل ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

*أن يقع العبد الضعيف في معصية وذنب فذلك متوقع منه كبشر ضعيف والنفوس أماراة بالسوء ما لا يقبله الله من العبد الضعيف هو أن يتجاهر بالمعصية ولا يتخفى بها بل يتحدث بها بعجب وخيلاء فان ذلك يجعله خارجاً عن عفو ربه.

*ولا يمكن أن يعتبر إتيان المنكر والمعاصي داخلا في إطار الحرية الشخصية لان الحرية الشخصية لها حدود ينبغي مراعاتها فإذا خرج الإنسان بمعصيته ومنكره إلى الناس وإلى العلانية اعتبر في كل الأعراف متجاوزا لحدوده. انه حر ما دام في ستر وتخف وهو لا يعدم بقية من حياء و(الحياء شعبة من شعب الإيمان) كما ورد في الحديث الشريف.

*إن النهي عن المنكر موضوع هذا الحديث أصل من أصول الإسلام وميزة من مميزات امة الإسلام وهو علامة عن حياة الضمير الإسلامي، تنهض بهذا الواجب كل الأمة وذلك حسب القدرة والاستطاعة وتتمحض له طائفة مفلحة يقول المولى جل وعلا في حقها ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

* إن النهي عن المنكر ضرب من ضروب النصيحة التي هي واجبة على المسلم والتي هي علامة من علامات التدين الصادق والإيمان الراسخ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» والتناصح والتناهي عن المنكر من علامات الإيمان «لا يكون أحدكم مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» و«المؤمن مرآة أخيه» وبقاء هذا الشعار مجسما في الواقع عنوان بقاء الخير وبقاء الإيمان فقد ورد في الأثر فيما يخص كلمة الحق التي منها النهي عن المنكر «لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لن نسمعها».

*إن النهي عن المنكر ليس هو التكلف ولا هو الدخول فيما لا يعني ولا هو التجسس على سرائر الناس إذ أمرنا في الإسلام أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

*فهذه الظواهر حق مشاع بيننا ينبغي علينا أن نرتفع بها عن كل ريب ونبتعد بها عن كل ما يغضب الله من قول أو فعل ومن تعمد انتهاك المتعارف عليه من المعروف ويجب علينا وجوبا عينيا وكفائيا أن نعيده إلى الجادة ونغلبه على نفسه الأمانة بالسوء ونستعمل معه كل ما يمكن أن يرجعه إلى الصواب وقد رسم الله تبارك وتعالى للمسلمين منهج تغيير المنكر وهو لا يكون إلا بالحكمة قال جل من قائل ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وقال لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام وهو الذي كان على خلق عظيم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا

الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿١٠﴾ وقال جل من قائل لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام عندما أرسلهما إلى فرعون الذي طغا وقال أنا ربكما الأعلى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾.

*وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نهيه عن المنكر أسوة وقدوة في الرفق واللين والحكمة فكان يكنى ولا يسمي يقول عليه الصلاة والسلام «ما بال أقوام يفعلون كذا كذا».

*إن النهي عن المنكر لا يمكن أن يعتبر تكلفا ولا يمكن أن يستدل في سبيل التملص من القيام به والتشرف بتحمل مسؤولياته وتبعاته بقوله جل من قائل ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ﴾ وقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ وقوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وغير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي يستدل بها في غير سياقها. إن محل الاستدلال بهذه النصوص هو في عدم تحميل احد جريرة احد وليس في التملص من أداء الواجب عند توفر شروطه.

ولم يترك العلماء أمر تغيير المنكر الذي دعت إليه عديد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية دون تبين وتوضيح وتحديد للمسؤوليات.

وهذا الحديث الذي أورده الإمام النووي رحمه الله ضمن الأربعين حديثا التي اختارها وحفظها للأمة - كل كلمة فيه وقف عندها العلماء بداية من قوله عليه الصلاة والسلام «من رأى» فما لم يره المسلم وما خفي عليه ليس مطالبا بأن يتقصاه أو يتجسس للوصول إليه، فأمر الواقع في المنكر متخفيا مستترا متروك لربه إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه،

و«المنكر» الذي يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث بتغييره هو ما قبحه الشرع قولاً أو فعلاً وغالبا ما يتطابق ما قبحه الشرع مع ما يقبحه العقل السليم والتفكير القويم ولكن يبقى دائما الأصل والأول في المنطلق هو الشرع الحنيف لأنه هو المنزه والمعصوم من الهوى وما تأمر به النفس.

*والتغيير للمنكر الذي يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث له مراتب ثلاثة باليد وباللسان وبالقلب ولا بد من التنبيه أن منكرا يترتب عن تغييره

والنهي عنه منكر أشد منه يجب تركه عملاً بالقاعدة المعروفة «ارتكاب أخف الضررين» وقد نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن سب آلهة المشركين فقد يدفعهم ذلك إلى سب آله المسلمين سبحانه وتعالى وهو منكر أشد وأعظم. فقد مر ابن تيمية ومعه تلاميذه على جنود العدو فوجدوهم يعاقرون الخمر وهم هؤلاء التلاميذ بنهي الجنود عما يفعلون فقال لهم شيخهم (اتركوهم مشغولين بهذا المنكر لأنه أخف من منكر آخر أشد وأنكر وهو انتهاك أعراض المسلمين) إنها الحكمة التي أمرنا الله بتوخيها والتي من أوتيتها فقد أوتي خيراً عظيماً.

***والمرتبة الأولى** التي بدا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي مرتبة تغيير المنكر باليد وقد اتفق العلماء على أنها من مهام أولى الأمر ومن لهم مسؤوليات ولا يخلو كل واحد منا من المسؤولية كبرت أم صغرت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته..» فالآباء والأمهات وكل أصحاب المسؤوليات على تدرجها في الارتفاع سبيلهم لتغيير المنكر المرتكب من قبل منظوريهم ومن هم تحت مسؤوليتهم هو اليد وقد قال سيدنا عثمان رضي الله عنه «إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن» والإمام العادل هو ظل الله في أرضه وهو أحد السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

***أما المرتبة الثانية** من مراتب تغيير المنكر فهي تغييره باللسان وهذه المرتبة مكلف بها العلماء ومن هم في مرتبتهم وهم بعلمهم الذي خصهم به ربهم (ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) يميزون بين الخير والشر والمعروف والمنكر وهم أيضاً يعلمون السبل والمناهج التي بها يؤثرون في الأنفس والتي بها يقنعون ذوي العقول. والكلمة في دين الإسلام عظيمة الشأن شديدة التأثير إنها كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وكل الرسالات والدعوات أولها كلمة.

***والنهي عن المنكر صدقة** من أعظم الصدقات وحسنة من أعظم الحسنات وذلك عندما يكون خالصاً لوجه الله إذ يبلغ القائم بها أعظم الدرجات وتكتب له بها الحسنات إنها كلمة الحق التي لا يقوى على الإصداع بها إلا من وفقه الله لأنها كثيراً ما تسبب لقاءها في الحرج والابتلاء وما أصدقها مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه «يا حق لم تترك لي صديقاً» ولكن حسب قائل كلمة الحق الناهي عن المنكر أنه يترسم خطي الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ويقول كلمة الحق ويأذار قومهم بعد

التفقه في الدين استحق العلماء أن يكونوا ورثة الأنبياء والعلماء في الأمة هم كالمالح في الطعام يقول الإمام سفيان الثوري:

أيها العلماء يا ملح البلد

ما يفيد الملح إذا الملح فسد

*إن العلماء الربانيين الصادقين المخلصين لله رب العالمين هم مصابيح الدجى وهم الهداة إلى الصراط المستقيم ووجودهم في الأمة هو صمام الامان والأمة ما دام بينها وفي صفوفها العلماء الذين لا يخشون في الله لومة لائم لا خوف عليها وهي بخير ونسأل الله تبارك وتعالى أن لا يظلنا الزمان الذي اخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يتخذ فيه الناس علماء جهالا يضلون ويضلون.

*أما المرتبة الثالثة والأخيرة من مراتب تغيير المنكر فهي تغيير المنكر بالقلب «فإن لم يستطع فبقلبه» وهي أن يظل المنكر منكرا والمعروف معروفا فمهما قل أهل المعروف ومهما كثر وازداد أهل المنكر ومهما انتشر هذا المنكر فان المؤمن لا يزال بخير ما لم يزين له الشيطان المنكر فيعتبره طبيعيا بمعنى يمر به ولا يتحرك له ساكن فلا يقول حتى بقلبه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) فإذا بلغ الناس هذه الحالة ومروا بالمنكر ولم تقشع أبدانهم ولم تحزن قلوبهم ولم يغضبوا حتى قلبيا لغضب الله ولم يدعوا «ربنا لا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا» فان تلك درجة من اللامبالاة واللاهتمام نسأل الله أن لا نبلغها.

*إن تغيير المنكر بالقلب واجب على كل من في قلبه ذرة من الإيمان ولأجل ذلك فان لا احد منا في حل من تغيير المنكر بإحدى درجاته الثلاث: باليد أو باللسان أو بالقلب فإذا ما انصرفت كل فئة في الأمة إلى ما هي مكلفة به من درجة تغيير المنكر بقيت للأمة الإسلامية خصوصياتها ومميزاتها وخيريتها الواردة في قوله جل من قائل «كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»



صناعة الفتوى المعاصرة

بقلم الدكتور قطب مصطفى سانو

الامين العام لمجمع الفقه الإسلامي الدولي جدة

الفقرة الثانية: بين الفتوى والقضاء:

وإذا كان ما مضى بياناً لعلاقة الإفتاء بالاجتهاد، فإنّ النظر المتمعن فيما سبق، يهديننا إلى القول بأنّ ذات العلاقة ثابوة بين الإفتاء والقضاء، فالإفتاء أعمّ من القضاء اعتباراً بأنّ القاضي هو الآخر يخبر عما يظنّ أنّه حكم الله في المسألة المتنازع فيها، ويتطلب القيام بهذه المهمة ضرورة تمكن القاضي من أدوات الكشف عن حكم الله، وتعرف تلك الأدوات بأدوات الاجتهاد في حقيقته. ويعني هذا أنّ التمكن من أدوات الاجتهاد لا يعدّ مقدّمة ضروريّة للإفتاء فحسب، وإنّما يعدّ كذلك مقدّمة ضروريّة للقضاء، ومن ثمّ، فإنّ الإفتاء والقضاء يتقاسمان هذا البعد في علاقتهما بالاجتهاد. ولعلّ أهمّ فرق تردّد سائر المدوّنات الأصوليّة قديماً وحديثاً بين القضاء والإفتاء يتمثّل في كون الفتوى إخباراً عن حكم الشرع بدليله في نازلة لا على سبيل الإلزام كما ورد ذلك في تعريف الإفتاء سابقاً، وأمّا القضاء، فإنّها إخباره عن حكم الشرع على سبيل الإلزام

وبتعبير آخر، إنه لا يجوز للمفتي حمل المستفتي على الحكم الذي يتوصل إليه في نازلة من النوازل، وأمّا القاضي، فإنه يحقّ له بل يجب عليه حمل الأطراف المتنازعة على الانصياع للحكم الذي يتوصل إليه.

ويذهب الإمام القرافي إلى إبراز فرق دقيق بين الإفتاء والقضاء قلّمّا نال إهتماماً جديراً بالتأمل، ويتمثّل ذلك الفرق في تقريره بأنّ الإفتاء إخبار عن حكم شرعيّ بناءً على مقتضى دليل يرجّحه المفتي، وأمّا القضاء، فإنّشاء لحكم شرعيّ، ومقتضى هذا

الفرق أنَّ الحكم قبل القضاء غير موجود في واقع الأمر، وإنَّما يُنشئه القاضي بحسب ما يظهر له؛ وأما الحكم قبل الإفتاء، فإنَّه موجود في واقع الأمر، وإنَّما يكشفه المفتي، ويخبر المستفتي بمقتضاه، وهذا نصُّ ما قاله الإمام القرافي في فروقه:

«... الفرق الرابع والعشرون والمائتان بين قاعدة الفتوى وقاعدة الحكم: وهو أنَّ كلاً منهما، وإن كان خبراً عن الله تعالى، ويجب على السامع اعتقاد ذلك، ويلزم ذلك المكلف من حيث الجملة إلا أنَّ بينهما فرقاً من جهتين:

الجهة الأولى: أنَّ الفتوى محض إخبار عن الله تعالى في إلزام أو إباحة، والحكم إخبار ما له الإنشاء، والإلزام، أي التنفيذ والإمضاء لما كان قبل الحكم فتوى، فالمفتي مع الله تعالى كالمرجم مع القاضي ينقل عنه ما وجده عنده، واستفاده منه بإشارة، أو عبارة، أو فعل، أو تقرير، أو ترك، والحاكم مع الله تعالى (=القاضي) كنائب الحاكم ينفذ، ويمضي بين الخصوم ما كان قبل ذلك فتوى، وليس بناقل ذلك عن مستنبيه، بل مستنبيه قال له أي شيء حكمت به على القواعد، فقد جعلته حكماً، فكما أنَّ كلا من المترجم عن القاضي، ونائب القاضي موافق للقاضي، ومطيع له، وساع في تنفيذ مراده، غير أنَّ أحدهما ينقل نقلاً محضاً من غير اجتهاد له في التنفيذ والإمضاء بين الخصوم، والآخر ينفذ، ويمضي ما يجتهد فيه من الأحكام على وفق القواعد بين الخصوم كذلك المفتي، والحاكم، كلاهما مطيع الله تعالى قابل لحكمه غير أنَّ المفتي مخبر محض، والحاكم منفذ وممضي هذا .. الجهة الثانية: أنَّ كل ما يتأتى فيه الحكم تتأتى فيه الفتوى، ولا عكس، وذلك أنَّ العبادات كلها على الإطلاق لا يدخلها الحكم البتة، بل إنَّما تدخلها الفتيا فقط، فكل ما وجد بها من الإخبارات، فهي فتيا فقط، فليس لحاكم أن يحكم أن هذه الصلاة صحيحة أو باطلة، ولا أن هذا الماء دون القلَّتين، فيكون بحلول قليل نجاسة فيه لم تغيَّره نجساً، فيحرم على المالك بعد ذلك استعماله بل ما يقال في ذلك إنَّما هو فتيا إن كانت مذهب السامع عمل بها، وإلا، فله تركها، والعمل بمذهبه...»⁽¹⁾.

ولئن تركنا جانباً ذلك الفرق الدقيق الذي انتهى إليه الإمام القرافي رحمه الله وتأمَّلنا في ذلك الفرق الشائع الذي يتخذ الإلزام وعدمه الأساساً للتفريق بين الفتوى والقضاء، فإنَّنا سنجد أنَّ ذلك الفرق لا ينبغي أن يكون على إطلاقه.

وبتعبير أدقَّ إننا نرى أنه من الممكن الإلزام بالحكم الذي يخبر به المفتي إذا كان المستفتي عنه نازلةً تعمُّ بها البلوى، ونعني بها تلك المسائل العامة التي لا تتسع لتعدد

(1) انظر: أنوار البروق في أنواء الفروق، للقرافي، ج 4 ص 89 باختصار.

الآراء إزاءها في مجتمع من المجتمعات لما يمكن أن ينتج عن ذلك من اختلال بمقصد الحفاظ على انتظام أمر الأمة؛ وبناء على ذلك، يغدو الإلزام بحكم المفتي في تلك المسائل العامة سائغاً، حفاظاً على المقصد الآنف الذكر .

وعليه، فإن القول بعدم الإلزام بفتوى المفتي ينبغي حمله على فتاواه في المسائل الخاصة التي لا يترتب على الاختلاف فيها اختلال بالنسيج الاجتماعي، ولا يؤدي إلى إحداث البلبلة في المجتمعات.

وتأسيساً على ذلك، فإننا نرى أن إنشاء العديد من الدول الإسلامية مؤسسات رسمية للإفتاء تتولى الفتوى بإشراف علماء أفاضل متمكنين من أدوات صناعة الفتوى يعد ذلك في العصر الحاضر عاملاً قوياً ينبغي اتخاذه أساساً لتقييد عدم الإلزام بفتوى المفتي بأن لا تكون المسألة المستفتى عنها مسألة عامة تعم بها البلوى، مما يعني أن الإلزام قد يكون جائزاً إذا كانت المسألة عامة، وكان التعدد إزاءها مفضياً إلى التناقض والتضاد والتنافر في المجتمع الواحد.

وبعبارة أوضح، إن تبدل الأوضاع، وتغير الظروف، وظهور المؤسسات الرسمية للفتوى أفضى كل ذلك إلى جواز حمل المستفتي على الأحكام الشرعية التي تصدرها تلك المؤسسات إزاء المسائل الاجتهادية العامة التي تعم بها البلوى؛ وإنما جاز الحمل في هذه الحالة استناداً إلى القاعدة الفقهية التي تقرّر بأن حكم الحاكم يرفع الخلاف، أي أن اختيار الحاكم (=ولي الأمر) في بلد من البلدان ذلك الرأي الاجتهادي الصادر عن المؤسسة الإفتائية الرسمية يغدو بعد رأياً واجب الأتباع والالتزام من الرعية في ذلك البلد، ولا يجوز الخروج عليه إذا كان ذلك مفضياً إلى اختلال بمقصد انتظام أمر الأمة.

وعليه، فإنه لا محذور اليوم في أن يسند ولي الأمر في أي بلد إسلامي إلى مؤسسات الإفتاء الرسمية مهمة اختيار رأي من الآراء أو تبني حل من الحلول استناداً إلى مصلحة زمنية معتبرة، وصيرورة ذلك الرأي المختار، أو الحل المقترح رأياً وحلاً واجب الالتزام والعمل به في قطر من الأقطار!

على أنه من الحريّ بالتقرير والتنبيه أن حمل الناس وإلزامهم بالفتاوى الصادرة عن تلك المؤسسات الرسمية ينبغي أن ينحصر في تلك الفتاوى حول المسائل العامة التي تعم بها البلوى، ولا تطبق التعددية أو الاختلاف، مما يعني أنه لا يحقّ لمؤسسات الإفتاء حمل الناس على فتاوها في المسائل الاجتهادية التي لا تؤدي التعددية فيها إلى شق أو تمزيق للصف الإسلامي في قطر من الأقطار.



الكوثر : لاموت الإنسان «في سيرة الشيخ الحبيب المستاوي»

بقلم الاستاذ أحمد بن زايد

قد لا تكون علاقتي بالشيخ الحبيب المستاوي (رحمه الله) مُمكنة واقعا، ولكنّ الوقائع جمعتني به ليكون جزءا من ذاكرتي.

كان أبي -وهو من فضلّ فضاء الرعي وعصا الراعي على ملازمة المسجد ودرس المؤدب وعصاه- مهتمّا بالعلم وبأمور العلم جميعها. فقد كان مُصّرّا على تعليم أبنائه ومحفّزا لكلّ من يعرف على العلم ما أمكن ولعلّ هذا راجع إلى غربته في مهجره البارد مع حالة الأميّة الخانقة عنده وعند من حوله. أذكر أنّه عندما رأى صورة « الشيخ الحبيب النفطي» في ورقة جريدة احتفظ بها وأرانها باسمها: «هذا الرجل يشبه جدّك حمد». وعندما حدّثته عن الحبيب المستاوي أريته صورته قائلا هذا يشبهك (وما كان يعرفه) قال ضاحكا هذه المرّة هذا يشبه خالك. ضحكت لأنني أعرف ربطه لي بخالي الزيتوني. وأضاف بحسرة: «أنا لا أشبه الشيوخ. فالعلم يظهر في وجوه أهله».

من هنا بدأت علاقتي البسيطة بالشيخ المستاوي. إنّهُ عند أبي شبيه خالي وأنا عنده شبيه خالي لذلك كله عندما اقترح عليّ سي منصور كتابة نص/ مداخلة حول سيرة الشيخ الحبيب المستاوي لم أتردد فللشيخ أثر في حياتي ولسي منصور أفضال تجعلني أُسرّ بالقبول وبالحديث. وقد تعمق احساسي بالامتنان لسي منصور عندما أتيح لي الجلوس إلى الشيخ صلاح الدين بن الحبيب المستاوي ولمست في حديثه برّه بأبيه وتعظيمه لمكانة الأبوة وإجلالي برّ الولد.

أبدأ ببيان العنوان فقد يبدو غريبا بعض الشيء.

لست شيخا بالمعنى المعروف للشيخ فأنا ابن المدرسة الحديثة. ولكنني أسعد بأن أقمّص شخصية الشيخ / الإمام / المؤدّب فأدعي تفسيراً للسورة التي تحمل هذا الاسم (سورة الكوثر الواردة في العنوان).

الكوثر⁽¹⁾ من قصار السور بل لعلها أقصر السور . وهي سورة فيها خطاب من الله إلى رسوله، خطاب مباشر. خطاب بالضمير. وخطاب بالأمر. وفيها تقرير خبر وتأكيده. والخبر هنا في معنى البشارة .

تأكيد أن الله أعطى رسوله الكوثر، وهو مدعاة شكر ،لأنّه نعمة. ومن هنا الأمر بالصلاة والنحر وهما علامة شكر وامتنان. والكوثر نهر في الجنة. والعطاء هنا منّة من الله على نبيه تعويضا عما بدا خللا في وضعه الاجتماعي بحساب العقل الجاهلي في تلك الفترة. فهو كما قال له كفّار قريش بلا خلف من الذكور يخلّد اسمه ويرث «مُلِكِه» كما زيّنت لهم أفهامهم وأشار به منطقتهم. فالرسالة قد فهمت عندهم نزوعاً إلى الملك. والملك كما عرفوه عند الممالك التي تجاورهم إرث يتلقاه خلف عن سلف. والخلف يجب أن يكون ذكراً.

الكوثر إذن عَوْضٌ عن السلالة، عوض عن البقاء ذكراً على وجه الأرض. ولا بقاء للذكر إلا بالأولاد الذكور

فالأولاد من العوض عن الكوثر في الدنيا ولهم على آبائهم أن يحسنوا رعايتهم والقيام بحقوقهم. والكوثر عوض الأبناء لمن اتكل على الله وجعل عطايه ومِنّه عوضاً له عن بقاء الذكر في الدنيا.

الكوثر إذن هو ما يُبقي للإنسان ذكراً وقد صدق الله وعده فقد استمر ذكر محمد وما كان له خلف من الذكور وبتر ذكر من افتخر بهم.⁽²⁾

(1) تسمى أيضا سورة النحر تعارضت الاقوال في كونها مدنية أو مكية عدد آياتها ثلاث وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات (عدد كلماتها أقل من سورتي العصر والنصر وإن كانت الآيات فيها متساوية

والكوثر الخير الكثير وقيل نهر في الجنة والكلام في معنى البشارة والتأكيد عليها (عن التحرير والتنوير بتصرف)

(2) - في مجال أعمق وأكثر تأسيسا كتب المغربي طه عبد الرحمان كتابا عنونه ب من الإنسان الأبتّر إلى الإنسان الكوثر (وهو مقالات جمعها رضوان مرحوم من طباعة المؤسسة العربية للفكر والإبداع. ط 1+2 بيروت. 2016)

الشيخ الحبيب المستاوي نال الكوثر ولدا صالحا جعل الأجر لا ينقطع وعلمنا بثه في صدور الرجال. ومع الولد والعلم ترك أثرا قد يكون بمنزلة الصدقة الجارية هو مجلة جواهر الإسلام.

أما الشيخ صلاح فلست بصدد البحث في وفائه لأبيه فما يقوم به دليل برّ ووفاء لاحتاج مني شهادة. أما مجلة «جواهر الإسلام» فإنني سأتناول عددها الذي حوى مقالات عن الشيخ كتبها جمع من أصدقائه وتلاميذه ومن كانت لهم به صلة.

اتناول العدد 9/10 للسنة 23 (مارس 2025)

بداية وافتتاح أقول

الجوهر في عموم اللغة هو اللب والتمين من الأعلاق والغالي الباهض ثمنا من المواد ومن كل شيء تقريبا. وهو في المصطلح الفلسفي الأصل الذي لا يتغير والماهية التي تدل على حقيقة الشيء⁽¹⁾. فيكون الجمع بين الجوهر والإسلام جمعا بين الحقيقة والدين أي جوهر الدين وحقيقته التي لا تتغير. فتكون بذلك إشارة إلى ما يقابلها ويضادها أي المتغير وغير الثابت وهو المسمى في الفلسفة العَرَض وهو في الدين سلوك المؤمنين بما فيهم من التقصير والغفلة والخطأ وغير ذلك وهو التدين⁽²⁾.

جواهر الإسلام المجلة التي انشاها المرحوم سنة 1968 مما بقي من عمله الطيب بعد وفاته وفيها إشارة واضحة إلى أنّه لا يطلب من بعثها الانتصار لمذهب أو خدمة توجه سياسي أو عقدي. بل الغاية والمطلب أن يَعْرِف الناس / القراء جواهر الإسلام الثابت ومبادئه التي لا تتغير وهذا يمكن أن يتناسب كثيرا مع مقصد الشريعة أو مع (فقه المقاصد). فالاسم إشارة إلى أنّ القصد منها نبذ الخلاف وتجنب الفرقة والبلوغ بالدين مرتبة يكون فيها أساس الوحدة الجامع بين الناس وإن اختلفت مظاهر تدينهم.

الشيخ الحبيب المستاوي ابن المدرسة التونسية وابن الزيتونة المالكية الوسطية المتسامحة، وهو أحد من اعترف العلامة ابن عاشور بعلمه وفضله فقرّبه. وابن

(1) - يقابله العَرَض وهو الصورة المتبدلة المتغيرة وقد يكون الجوهر مادة كالخشب للباب وقد يكون فكرة الباب في الذهن. فالباب على صورة تتغير حسب الحاجة طولا وقصرا وزينة. والخشب هو المادة لهذه الصور المتغيرة فيكون بذلك الجوهر الواحد للصور المتغيرة. وقد يكون الجوهر فكرة الباب في ذاتها فهي واحدة وإن تغيرت المادة واختلفت الصور.

(2) - يشبه الدين باعتباره نمطا من أنماط التفكير والمعرفة والسلوك باللغة. فاللغة صورة نقية سليمة تكون موزعة في عقول الناس المتكلمين ولا يملكها واحد منهم ولا يحيط بها. وسلوكه اللغوي كلام فردي لا يفسد اللغة عندما يحرفها عن أصلها أو يخطئ في استعمال موادها. والدين فكرة علوية سامية لا يستطيع واحد من معتنقيها أن يحيط بها أو يملكها ويقابل السلوك الديني الفردي ويسمى تدينا لا يفسد الدين وإن انحرف صاحبه أو أخطأ أو أفسد.

عاشور هو أحد الذين كتبوا في مقاصد الشريعة وفي أصول النظام الاجتماعي في الإسلام والكتابان من أندر الكتب التي نظرت في الإسلام باعتباره حالة تعبدية روحية بأثر واقعي اجتماعي والشيخ كان مجللاً للعلامة فقد كان يقول : « ساعة في منزل العاشوريين أفضل من أربعين يوماً في مكتبة » (بوليفة ص 119). وكان في إيمانه بجوهرية الإسلام لا يتأفف من أن يقف مع العصاة وكانوا يحترمونه رغم عصيانهم. (بوليفة ص 119).

جوهر الإسلام خلدت ذكرى الشيخ في مئوية الولادة (2023/1923). ومنها نستشف صورة حية للشيخ الحبيب رحمه الله. صورة نفسية واجتماعية وعلمية وأدبية. صورة تظهر لنا الشخصية في أبعادها المختلفة فقد تكون صورة الشيخ العالم أو الشاعر الداعية هي الأبرز عند عموم الناس ولكن المجلة تبين بوضوح أنه كان إنساناً أولاً وتونسياً ثانياً، وأنّ البعدين كانا صورة لجوهر الدين الإسلامي. قال عنه بوليفة «كان نسيجاً وحده» لأنّه عرفه عن قرب والعبارة ليست من إبداع بوليفة ولكنها عبّرت عن حقيقة ما رآه من الشيخ وعلاقة الشيخ بمن قيلت فيه (قالتها عائشة عن عمر).⁽¹⁾

1 - الشيخ المعلم المدرس

أول صفات الشيخ الحبيب المستاوي وأبرزها هو تصديه للتدريس حمل بذلك صفة المعلم بما في الصفة من سموّ ورفعة اجتماعية وأخلاقية وعلمية. نقل بوليفة آراء تلاميذه ممن عرف فكان صورة للوطنيّ الصادق والمعلم المثالي صاحب الرسالة. قال علي العبار : «الأب الأستاذ المربي المعلم صاحب الفضل على الجهة كان حريصاً على أن يجعل منا نخبة»

وقال محمد الفلاح : «كان الشيخ وطنياً صادقا»

وينوّه صالح زروق بـ : «عطفه الجياش على التلاميذ .. وأنّه رجل حنون غير متكبر».

أمّا علي الجليدي فيعترف بفضل الشيخ معلماً ومدرساً بقوله شيخي جزاك الله كم اعطينا فاليوم منا عالم وأديب

(1) في مجمع الأمثال للميداني. الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره أو الواحد في معناه وليس له ثان.

قالت عائشة عن عمر وقد ذكرته كان والله أحوذياً . نسيج وحده قد أعدّ للأُمور أقرانها.

وينوّه أبو لبابة الطاهر صالح حسين (ص 13) بالشيخ معلّمًا حتّى خارج المدرسة فله مريدوه وطلّبه الذين يتمتّعون برعايته ويستفيدون من نصّحه وعلمه فيقول: «كان المدرس المتميز والداعية الخبير المؤثر والكاتب المواكب وترك أثرا عميقا في تكوين الوعّاظ والخطباء والدعاة الذين كان يشرف على إعدادهم... فكان يمرّ بهم ويهيّء لهم الدروس التطبيقية ويمكنهم من شهود المحاضرات النوعية بالمساجد» ويؤكد فريد قطاط (ص 29) ما ذكره أبو لبابة إذ يقول: «شدني إلى الشيخ رحمه الله شخصيته الزيتونية الجامعة بين الايمان العميق والعلم الديني الدقيق... ولم أغادر المسجد حتى وطدت العزم على حضور دروسه بجامع سبحان الله بلا انقطاع» ولم يكن أثره التعليمي قاصرا على حاضرة تونس ومدنها الكبرى وإنّما كان كالغيث فيفيد ويخصب حيثما حلّ فقد درس في معهد احمد باشا في طرابلس.... كما لم يتردد في الإسهام في كل المؤتمرات والندوات العلمية التي نظمتها مصر والجزائر والمغرب والأردن والسعودية.

ويتّبع منصف بن فرج (ص 34) مسار حياته التعليمية ويقسمها إلى مراحل تظهر كلّ قيمته ومكانته يقول: «بأشر التعليم بالفرع الزيتوني بمدينة... نقل بمثل خطته في ميدان التعليم إلى ولاية قفصة وبعد ذلك تم نقله إلى تطاوين لمواصلة التدريس». ثم يشني عليه وعلى جهوده بقوله: «وضعت فيه الحكومة (بعد الاستقلال) ثقتها ضمن وفد من الأساتذة للتدريس بليبيا»

ويبيّن ترقّيه في مدارج العلم والتعليم فيذكر أنّه: «لدى عودته إلى تونس سنة 62 انتدب للتدريس بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين وكذلك بالأكاديمية العسكرية.»

2 - الشيخ الداعية الإمام

الصفة الثانية التي اتصف بها الشيخ وشهد من عاصره والتقاءه ببراعته وإتقانه وجِدّه هي الداعية الإمام وهذا من صميم جهوده رحمه الله . يبين سليمان الكنزاري (ص 37) قدرات الدّاعية الناصح والإمام الموجه وكفاءته في هذا الجهد بقوله: «تفطّنت إلى قدرته التي ستوخى سبيلها في الرّبط بين الإسلام والشأن العام مؤكدا على ضرورة الرّبط بينهما في حياة المسلمين.» ثمّ يضيف ليكشف وضوح منهجه الدّعوي وعمق الرسالة التي يعمل على إبلاغها: «كان ينصحهم بنذ العنف في الدعوة مما ينفر الناس منهم ومن دعوتهم الصادقة وذلك تأسيا بالمنهج الإسلامي... مشيرا إلى هذا المنهج القرآني بقوله (أجل هذه هي دعوة محمد وهذه هي طريقتنا).»

أمّا حسين صميّدة (ص 84) فيوضح منهجه بقوله: «تخرج الشيخ من جامع الزيتونة المعمور بتونس وبه درّس فانتهج منهج العلماء الأجلاء الأوائل وواصل رسالتهم في الكلية الزيتونية وفي كلّ مكان حلّ به وبخاصة جامعي «سبحان الله» و«مقرين» اللذين كان يعقد فيهما مجالسه العلميّة ويجتمع برواده وتلاميذه». ثم يزيد الأمر توضيحا ويأنا فيقول: «لقد كانت مجالس الشيخ تستقطب الشيوخ والشباب والمثقفين والمتعلمين على حدّ السواء يوجهها بفكر ثاقب ويغذي روادها بما يشفي نفوسهم المتعطشة».

ويركز حسين المزوغي على الوسائل التي يعتمد عليها الشيخ الداعية الإمام فنعرف من ذلك أنّه سخر جزءا من حياته ووقته لهذا العمل ولم يدّخر جهدا في تبليغ الرسالة التي آمن بها. وهذه الوسائل تختزل في ثلاث خاطب من خلالها الناس: «توجه إلى الناس عبر محطات متعددة يمكن اختزالها في ثلاث: حصص إذاعية توعوية/ مجلة جوهر الإسلام/ دروس في جامعي سبحان الله ومقرين».

لقد آمن الشيخ بأنّ الإصلاح والتغيير لا يكون إلّا بتغيير الأفكار وتنوير العقول والخروج من الانغلاق والتجبرّ يضيف حسين المزوغي: « فالرجل من دعاة الإصلاح لم ير أفضل فضاء يمكن له من خلاله مخاطبة العقول وتغيير ما بالنفوس سوى فضاء الفكر والقلم.» ثم يشرح ويوضح ما رآه من جهود الشيخ ومنهجه: «الشيخ المستاوي يؤكد على الدعوة السلمية التي كانت أساس انتشار الإسلام كأنه بهذا يدعو إلى نبذ العنف الذي أمسى منهجا لبعض الحركات الإسلامية».

3 - الشيخ السياسي المناضل

تزامنت حياة الشيخ مع حركة التحرر التونسية في صورتها السياسية العسكرية أولا ثم في صورتها الاجتماعية الإصلاحية عند بناء الدولة وتأسيس الجمهورية فلم يكن غريبا لمثقف وعالم ان يتزىي بثوب المناضل خاصة وان المرحلة تقتضي إلى جانب الجهاد العسكري جهادا من نوع آخر أساسه تنوير العقول وحفز الهمم ونشر الفضائل. يقول سوف عبيد (ص 50): « فالشيخ يعتبر نفسه من تلاميذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور الذي يمثل أحسن تمثيل المدرسة الإصلاحية التونسية المعاصرة..... في جميع المجالات ضمن الاجتهاد والتجديد والتصدي للحكم المطلق حيناً وفي التصدي للاستعمار الفرنسي حيناً آخر وفي بناء أسس الدولة الوطنية بعد الاستقلال.»

أمّا تلميذه الهادي خلفه (ص 88) فيذكر بما ناله نتيجة مواقفه الثابتة يقول: «ودفع الشيخ المستاوي ثمن وطنيته إذ نقل إلى فرع قفصة كعملية عقاب ولما كان العمل الوطني يتطلب معرفة دقيقة بالمحيط وبنفسيات الرجال سعى للعمل بالفرع الزيتوني بتطاوين وبذلك يكون بين أهله وذويه مما سيشجعه على الدعوة والتخطيط المحكم للعمل الوطني.» ثم يضيف: «وفي تطاوين مارس التدريس إلى جانب العديد من المهام الوطنية وتحمل عدة مسؤوليات حزبية. والذي توج بنيله ثقة المؤتمرين في مؤتمر 71 بالمنستير إذ انتخب بالإجماع عضواً في اللجنة المركزية للحزب.»

ويلخص محمد العزيز الساحلي (ص 99) دور الشيخ النضالي والوطني قبل الاستقلال بقوله: «وكان الفقيه طيب الله ثراه إلى جانب خطة التدريس يقوم بنشاط وطني مكثف وكانت تحركاته محل متابعة وملاحقة من السلطات الاستعمارية الفرنسية لذلك أبعدته المرة تلو المرة في محاولات يائسة للحد من حركيته ونشاطه لكنه واصل مسيرته النضالية إلى أن تحصلت تونس على استقلالها.»

ويواصل الشاء على نشاطه ومبدئيه وصدق نضالاته فيقول: «الأنشطة السياسية لم تنقطع من خلال حضوره الفاعل في هياكل الحزب الاشتراكي الدستوري.»

ويشهد منصور بوليفة بمواقفه السليمة ورجاحة رأيه ناقلاً عن المناضل عمر بوفلغة: «كان حاضراً ضمن الذين اجتمعوا بصالح بن يوسف في دار علي المقدميني ويومها نصح الشيخ أهالي تطاوين بعدم الانجرار والصعود إلى الجبل ولكن لم يؤخذ برأيه ووقعت الفاجعة نهار 29 ماي 1956.

ومن أجل البراهين على نضاله وسعيه الصادق إلى الإصلاح «البيان الذي قدمه الشيخ الحبيب المستاوي إلى اللجنة العليا للحزب الاشتراكي الدستوري 1970.» وقد كان سبباً في إثارة غضب أعضاء الحزب وإثارة حفيظتهم. وهذا البيان يكشف بوضوح وجلاء عمق تفكيره السياسي / الديني فهو بيان يجعل الديني ركناً من المكونات البانية للإنسان وسياسته باعتباره من المكونات الأساسية للتونسي المعاصر فقد جمع الإعلامي والإداري والتعليمي مع الديني والأخلاقي لسياسة الأمة / الشعب.

4 - الشيخ الأديب الشاعر

نال الشيخ الشاعر حظاً عظيماً من الدرس والبحث في عدد المجلة فهو الداعية والشاعر عند أبولبابة الطاهر صالح حسين وهو عند المختار العبيدي الحبيب

المستاوي شاعرا وهو عند سوف عبید مع الشيخ الحبيب المستاوي شاعرا وهو عند الصادق الأطرش شاعر بمنزعه صوفي وهو عند الهادي خلفه الشاعر المصلح وهو المذكور في شعراء الدعوة وهو الشيخ الشاعر الملتزم المتأمل وديوانه «مع الله» كان موضوع مقال لمحمد بن رجب وسيرة الشيخ وشخصيته كانتا موضوع قصيدة الشاعر علي الجليدي.

والملاحظ في ما كتب عن شعر الشيخ المستاوي أنه لم يخرج عن ملامح الشيخ معلما وإماما وداعية . فقد حافظ في ما كان به شاعرا على مبادئه الإسلامية فكان شعره تعبيرا صادقا عن قضيته الأساسية وهي أن يُخلِّص الإنسان حياته كلها للخير متعلقا بأسمى قيم الوجود في أن يكون مع الله . والله هنا ليس إلها صوفيا يتعلق بخلص الفرد بل هو اله تتجسد فيه معاني الدين العليا وجوهر الإيمان الصافي بما في أسماء الله وفي ذاته من معاني الرحمة والعدل والقدسية . وان ديوانا من الشعر يمهز بعبارة مع الله لا يكون إلا تعبيرا عن إيمان صادق وروح نقية متعلقة بأرفع القيم وأنبهها وهي تلك التي رسمها الإيمان الصافي وهدى إليها.

ومع ان المضامين الشعرية يترجمها العنوان فان الجميع يؤكد تمكن الشيخ من أسباب الفصاحة وسلاسة الأسلوب وعمق الفكرة . فلم يضيّع جمال الصوغ أمام سمو الفكرة ولا هو جعل همّه نظما لكلام ونضّده مهملا طرافة المعنى وجمال الفكرة

الحبيب المستاوي الإنسان

الخاتمة

«لا موت الإنسان» عبارة لاتعني خلوده وبقاءه على وجه البسيطة وإنّما تشير مباشرة إلى معنى الذكر كما فهمه شانؤو محمد صلى الله عليه وسلم وتعني أيضا ما يتداوله العرب من أن الفتى حديث بعده . وما قاله المتنبي من ترك دويّ في الدنيا كأنّما تداول سمع المرء أنمله العشر .

موت الإنسان لحظة من لحظات عربة العقل البشري في الحداثة الأروبية بدأها «نيتشه» محتجا نائرا على الكنيسة وأخلاقها المنحرفة عن حقيقة المسيحية عندما أعلن موت الإله . وتوسعت إلى الأدب عندما أعلن موت الكاتب ثم موت الناقد الذي سلط معايير الجائزة على الأدب ومنعه كل نفس من أنفاس الحرية وموت الكاتب لما صار النص في ذاته فارغا من المعنى بل يُعرف معناه من صاحبه وهذا مما يجعل الحق يعرف بالرجال والأصل أن الرجال تُعرف بالحق فالحق أولى بالاتباع وكذلك الأدب.

هذا الموت الذي غيب انحرافات الكنيسة في حادثة أوروبا وألغى هيمنة معايير الناقد على النص ثم ألغى المؤلف ليعلي من شأن النص جعل روجيه غارودي يقول بأن النبوية هي موت الإنسان

أما ما نحن بصده فدلّيل واضح على أنّ الإنسان لا يموت وينقطع ذكره بل ينتقل إلى عوالمه العلا ويبقى على الأرض ذكره ما كان إنسانا. لم ينقطع ذكر محمد في الدنيا وله الكوثر ولم ينقطع ذكر الشيخ رغم شأن قوم فقد بقي ذكره لأنّه لم يفقد الإنسانية في حياته القصيرة سنينا والعميقة فعلا.

فقد كتب عنه الشيخ منصور بوليفة بما هو إنسان يعيش بين الناس ولا يناله كبر رغم توقيرهم له وتعظيمهم لمقامه عالما ولم يتردد في جعل بورقية يعفو عن أبناء بلده رغم ما قد يناله من غضب الساسة ولم يواجه الشيخ الحبيب ابن صديقه بالخطاب عندما اقتحم عليه درسه بل أشار إليه بلطف الأب وغضبه وشدته . ولا يجد حرجا في الوقوف مع العصاي بل ويقول له (ادعيلي فربما أنت أفضل مني).

يقال أنّ الانسان صار إنسانا وتهذبت غرائزه يوم جلس إلى مكسور جابرا أو إلى مجروح معالجا جرحه أو إلى مريض يداويه ويخدمه ولم يتركه للموت والإهمال. وكذلك كان الشيخ مع من عرفه وكتب عنه رفيقا بمن حوله لطيفا في تعامله دون كبر ولا غلظة ولا زجر.

وليس أدلّ على إنسانية الشيخ ولطفه من كتابات بعض من عرفه وعاشه بنبرة من الحنين الحارق والإجلال العميق والحميمية اللطيفة، كما كتب صالح الحاجة إلى شيخه معتنرا ونظم علي الجلّيدي معبرا عن حبه وكتب صالح العود مناجيا بما في نفسه من محبة الشيخ وتعظيمه.

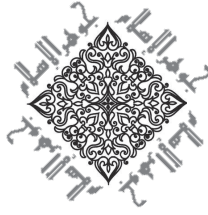
إنّ الإنسان لا يموت ما كان إنسانا. وإنّ الله وهبه الكوثر نهرا للخلود في الجنّة السماوية، وذكر بالولد الصالح يدعو له، والصدقة جارية ينال خيرها الموجودات، والعلم بثّه في صدور الرجال، في الدنيا.

إنّ السيرة ذُكر. وليس أعظم من سيرة رجل يكتبها كثير من الرجال، فيكون بذلك رجلا أمة (الدكتور فريد قطاط). رجلا نال ما يناله الأبرار في الدنيا.

رحم الله الشيخ وجعل ما نقوله عنه في ميزان حسناتنا جميعا

أحمد بن زايد

تطاوين في 02/05/2025



العلاقات العلمية بين مكة المكرمة ومراكز العلم في البلاد الإسلامية الحرمان الشريفان وجامع الزيتونة (القسم الاول)

بقلم الدكتور عبد الوهاب ابو سليمان

مكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن العلاقة التاريخية العلمية بين المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف علاقة أزلية، أبدية، الحديث عن أحدهما هو حديث عن الآخر، خصوصاً عند التحدث عن الناحية العلمية فيهما وعلاقة المراكز العلمية في البلاد الإسلامية الأخرى بهما. ومن المهم في هذه المناسبة المباركة (مكة عاصمة الثقافة الإسلامية) أن تبرز تلك العلاقات العلمية بين مكة المكرمة ومراكز العلم التاريخية في البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ويبدأ البحث في هذا الموضوع بين المسجدين الشريفين وجامع الزيتونة المبارك عبر عصور الإسلام باعتبار جامع الزيتونة من أقدم المراكز العلمية بعد الحرمين الشريفين.

المسجدان الشريفان، والبلدان الطاهران: مكة المكرمة والمدينة المنورة مصدران نور وأسرار، ملتقى أمم الإسلام، على ترابهما الطاهر، وأروقتهما المباركة يلتقي العلماء وطلاب العلم لقاء حب وإيمان، تظلل حلقاتهما العلمية المنتشرة في جنباتهما أجواء روحية، ونفحات ربانية، تتغذى بها الأرواح، وتتشبع بها النفوس.

ظل الحرمان الشريفان ولا يزالان مركزين علميين يأرز إليهما العلم والإيمان، ممثلان في علماء المسلمين والطلاب من كل مكان.

التعليم والتعلم في رحاب المسجدين الطاهرين: الحرم المكي الشريف، والمسجد النبوي المطهر أنوار متجلية، نفحات مباركة، فتوحات إلهية، تخرج منهما أئمة وأعلام هدى، خلدهم التاريخ، ملأوا دنيا الإسلام علوماً ومعارف.

الهجرة إليهما عبادة، الإقامة فيهما أمنية عزيزة، هي هاجس المسلم وسبحة دعائه: (اللهم اجعل لي بها مقاما، وارزقني فيها رزقا حالالا)

أضحت مكة المشرفة، والمدينة المنورة منذ فجر الإسلام ينبوع العلم والإيمان، قصدهما علماء الإسلام من كل زاوية، ووفد إليهما من كل قطر من أقطار المعمورة، يجتمع فيهما شملهم، وينتظم فيهما عقدهم في نسج منسجم عجيب، ونسق فريد، يفيدون ويستفيدون، يعلمون ويتعلمون.

جرى مثلا: (أن المكان يشرف بالمكين) إذا صدقت هذه المقولة في كثير من جزئياتها فإنها تصدق فيما نحن بصدد الحديث عنه: (الحرمان الشريفان وجامع الزيتونة) فالمكين فيها يشرف بالمكان.

شرف العلم لا يعلوه شرف، وشرفه في مكة المكرمة، والمدينة المنورة وجامع الزيتونة هو أعظم الشرف.

أقبل فقهاء جامع الزيتونة لنيل هذا الشرف في الحرمين الشريفين إقبال الظمان، وتلهفه للماء البارد، فكان لهم منهما الحظ الأوفر، كانوا من أوائل الوفود العلمية. يغتنمون فرصة التلقي فيهما عن أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، وكبار التابعين الذين امتلأت بهم ساحات الحرمين الطاهرين المباركين، فغرسوا علاقات أبدية سرمدية ما انقطعت منذ بدأت، ولا فترت منذ نشطت، بدءاً من القرن الثاني الهجري حتى القرن الحالي: بداية العقدين من القرن الخامس عشر الهجري وبالتحديد: العام السابع عشر بعد الأربعمائة والألف.

تأخت معاهدهما، وتدبج علماؤهما مع علماء تونس وأعلامها، ظلت تنمو وتمتد عبر السنين والقرون حتى غدت معاهد تونس العلمية وجامعاها: القيروان، والزيتونة مأوى العلم والعلماء، تهوي إليهما الأفتدة، حصونا منيعة من حصون العلم تنكسر على عتباتهما الأباطيل والضلالات، وبفضل جهود علمائهما انتشر نور الإسلام في أفريقيا وجنوب أوروبا، بل قدمت إليهما وفود الطلاب من المشرق والمغرب.

حديث التاريخ عن العلاقات بين علماء الحرمين الشريفين وعلماء الجامع الأعظم: جامع الزيتونة حديث يمس شغاف القلوب، ويحرك الشجون، فهو حديث عن العلم ورحابه، والقداصات والمقدسات، حفلت به الأسفار، وامتألت به الدواوين في إفاضة وإسهاب ذات أفنان، سير وطرائف، إفادات وسلوك، آداب وعلوم، لا تستوعبها المقالات، والبحوث الطويلة، بل إنها جديرة برسائل الباحثين ومؤلفات الدارسين،

لا تتسع هذه المناسبة الجليلة الكريمة، مناسبة الاحتفاء بمرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس جامع الزيتونة⁽¹⁾ بتقديم شذرات ومقتطفات، هي نماذج وعناوين دالة على الكثير، الكثير مما امتألت به دواوين التاريخ، والتراجم، والفهارس، والأبحاث، وكتب الرحالة، فقد حوت مادة علمية غزيرة تستحق الرصد والإشادة، وبذل الجهد. إن هذه المناسبة الكريمة الجليلة في تاريخ الأمة الإسلامية تقضي أيضاً كشف النقاب عن الصفحات المشرقة التي تحسب في مزايا علماء جامع الزيتونة وموازينهم، وما أسهموا به من العلوم والمعارف في أرض الحرمين الشريفين، بفضل هجراتهم المؤقتة أو الدائمة، والتنويه بأثارهم، وإثرائهم الحياة العلمية في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة.

الرعي الأول من الزيتونيين الوافدين إلى الحرمين الشريفين

شهد القرن الثاني الهجري بداية (عناية مدينتي القيروان وتونس بحمل العلم، فقصدوا موارده بالمشرق كمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، والكوفة، والبصرة، ثم دمشق، والفسطاط، وملأوا من العرفان وطابهم، وعادوا بعد حين إلى وطن ولادتهم لبث ما لديهم بين أبناء جلدتهم)⁽²⁾.

كان الحرمان الشريفان المرتاد الأول، والمكان المفضل حتى أصبح علمهما وفقههما هو فقه تونس وعلمها، وهو المستقل بالتدريس، المنفرد به في الجامع الأعظم، جامع الزيتونة وغيره من معاهد العلمية، كان رمز هذه العلوم وشعارها هو: (فقه الإمام مالك وعلومه بخاصة رحمه الله تعالى).

وكان للطليعة المباركة من فقهاء تونس وأعلامها الرائدة دور كبير في ترسيخ تلك العلاقات ونموها.

(1) شارك صاحب البحث في الذكرى التي أقيمت بتونس

(2) عبد الوهاب، حسن حسني. كتاب العمر، الطبعة الأولى مراجعة: إكمال محمد العروسي المطوي. بشير البكوش (تونس، بيت الحكمة، عام 1990)، ج 1. ص 037

يذكر التاريخ بالفخر والاعتزاز أسماءهم إعجاباً وتقديراً لجهودهم الكبيرة التي أثمرت أجيالاً من العلماء النابهين، تطفل العلماء المسلمون أجيالاً بعدها أجيال على مؤلفاتهم ودراساتهم يأتي في مقدمة هؤلاء:

الإمام علي بن زياد التونسي العبسي

إليه ينتمي العلم في تونس بعامة، وفي جامعها الأعظم الزيتونة بخاصة، بارك الله في جهوده التي أثمرت كبار العلماء والفقهاء، فتلقى عنه الأكابر من علماء الزيتونة أمثال: «البهلول بن راشد» و«سحنون» و«شجرة بن عيسى» و«أسد بن الفرات» يحكي أبو العرب عن أسد بن الفرات قوله: «إني لأدعو الله لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت منه العلم»⁽¹⁾.

ثم يعدد العلامة المؤرخ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني أوصافه وسماعاته من فقهاء المدينة وعلو قدره في إفريقية قائلاً:

((أبو الحسن علي بن زياد من أهل تونس، كان ثقة، فقيهاً، مأموناً، خياراً، متعبداً، بارعاً في الفقه. سمع من مالك بن أنس، ومن سفيان الثوري، ومن الليث بن سعد، ومن ابن لهيعة وغيرهم. لم يكن في عصره بأفريقية مثله...))⁽²⁾

يقول أبو العرب: ولم يكن سحنون يقدم عليه أحداً من أهل إفريقية..

قال أبو العرب: كان علي بن زياد خير أهل إفريقية في الضبط للعلم، قال أبو العرب، وقال حمد بن القطان: لم يكن سحنون يفضل أحداً من أهل المغرب على علي بن زياد.

(ومن طبقة علي بن زياد أبو مسعود بن أشرس من أهل تونس، وهو رجل من العرب، وكان ثقة فاضلاً، له سماع من مالك بن أنس، ولقد روى عنه عبد الرحمن ابن قاسم حديثاً واحداً...) ⁽³⁾.

في مجال المقارنة بين علي بن زياد وأبي مسعود بن أشرس يقول سحنون رحمه الله:

(كان علي بن زياد خير أهل إفريقية في الضبط للعلم، قال: وكان ابن أشرس أحفظ للرواية..)⁽⁴⁾ (5)

(1) طبقات علماء إفريقية وتونس، الطبعة الأولى، تقديم وتحقيق علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، تونس: الدار التونسية. عام 1968 صفحة 220

(2) طبقات علماء إفريقية وتونس، 220

(3) طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 0220221

(4) (2) و(3) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 223

أوائل التونسيين الوافدين إلى الحرمين الشريفين

وفد إلى الحرمين الشريفين عدد من التونسيين بغرض الأخذ عن علماء الحرمين، وفي مقدمتهم مالك بن أنس رحمه الله تعالى من هؤلاء :

* أبو مسعود عبد الرحيم بن أشرس الأنصاري:

(قال أبو العرب: ومن طبقة علي بن زياد أبو مسعود ابن أشرس من أهل تونس، وهو رجل من العرب، وكان ثقة فاضلاً، له سماع من مالك بن أنس، ولقد روى عنه عبد الرحمن بن القاسم حديثاً واحداً ..)⁽¹⁾ (وكان فاضلاً سمع من مالك. قال سحنون:

كان ابن أشرس حسن الضبط للعلم، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...)⁽²⁾

* عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان بن الرعيني المتوفى سنة تسعين ومائة للهجرة:

قال عنه أبو العرب:

(وكان ثبّتا، ثقة نبيلاً، ولي القضاء بعد ماتع بن عبد الرحمن وكان عدلاً في قضائه...) ⁽³⁾ نوه عن صفاته أبو علي بن أبي سعيد في كتاب (المعرب عن أحوال المغرب) قائلاً: (كان ابن غانم رجلاً كاملاً فقيهاً، مقدماً مع فصاحة لسان، وحسن بيان، وبصر بالعربية، ورواية الشعر) الله .

قال المؤلف القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي:

سمع ابن غانم من ابن انعم، وخالد بن ابي عمران، ورحل إلى الحجاز، والشام، والعراق فسمع من مالك وعليه اعتماده ومن سفيان الثوري..

قال ابن عمران: كان مالك يجلب ابن غانم، وإذا جاءه أقعده إلى جانبه ويسأله عن أخبار المغرب، وإذا رأى أصحابه قالوا: شغله المغربي عنا، ولما ولي القضاء أعلم مالك بذلك أصحابه وسرّبه.

ويقال: (إن مالكا عرض عليه أن يزوجه ابنته، ويقيم عنده فامتنع من المقام، وقال له: إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها ..)⁽⁴⁾.

(1) طبقات افريقية وتونس، ص 223

(2) المالكي، عبد الله بن محمد، رياض النفوس، ج 1 . ص 252. ورجح أن اسمه (العباس) أنظر:

القاضي عياض، ترتيب لمدارك، ج 3، ص 85

(3) أبو العرب، طبقات علماء افريقية وتونس، ص 223

(4) المدارك في تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق عبد القادر الصحراري،

من الأوائل:

* البهلول بن راشد أبو عمرو: المتوفى سنة ثلاثة وثمانين ومائة، وقيل إنه مات سنة اثنتين وثمانين ومائة.

(قال أبو العرب: أبو عمرو البهلول بن راشد: كان ثقة، مجتهداً، ورعاً، لا يشك في أنه مستجاب الدعاء، وكان عنده علم كثير. سمع من مالك بن أنس، ومن سفيان الثوري، ومن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم.

وقد سمع من البهلول بن راشد وجوه مشائخ أفريقية:

سحنون، وعون بن يوسف الخزاعي، وأبو زكرياء يحيى بن سليمان الحفري..⁽¹⁾ عرف الإمام مالك رحمه الله للبهلول مكانته، فقد كانت إذا جاءت إلى مالك من عند ابن غانم أقضية، فقال ما قال فيها المصفر؟ يعنى البهلول، وما قال فيها الفارسي؟ يعنى عبد الله بن فروخ؟

قال سعيد بن الحداد: ما كان بهذا البلد أحد أقوم بالسنة من البهلول في وقته، وسحنون في وقته..⁽²⁾

ومن الأوائل:

* (عبد الله بن فروخ الفارسي: كان من شيوخ أهل إفريقية، وكان مسناً ممن رحل في طلب العلم، فلقي بالمشرق مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وقد لقي أيضاً أبا حنيفة، ولقي غير واحد ممن حمل عن سفيان منهم: زكرياء بن أبي زائدة. وكان يكتب مالكا، وكان مالك يعرفه، ويكتبه بجواب مسائله، وكان ثقة في حديثه، وتعافى من القضاء لما وليه..) مالك يكرمه، ويرعى له فضلاً، ويقول لأصحابه: هذا فقيه أهل المغرب..⁽³⁾

ومن مكاتبتة للإمام مالك ما روي (عن سحنون أنه نظر في رسالة مالك إلى ابن فروخ، وكان ابن فروخ كتب إلى مالك يخبره:

إن بلدنا كثير البدع، وأنه ألف لهم كلاماً في الرد عليهم فكتب إليه مالك يخبره: إنك إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل أو تهلك، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطاً، عارفاً بما يقول لهم، ليس يقدر أن يعرجوا عليه فإن هذا لا بأس به. أما غير

(المغرب: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية)، ج 3. ص 66

(1) طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 126

(2) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 3، ص 82.

(3) أبو العرب التميمي، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 107

هذا فإنني أخاف أن يكلمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشئ فيتعلقوا به، ويزدادوا تمادياً على ذلك.

قال عبد الله : أشفق مالك رضي الله تعالى عنه أن يكون ذلك سبباً لإظهار طريقة الجدل بإفريقية، فيؤدى ذلك إلى أسباب يخاف من غوائلها، ولا يؤمن شرها فأراد حسم الباب..⁽¹⁾

كان الإمام مالك رحمه الله عظيم التقدير له، عارفاً بمكانته، فقد كان أثيراً بمجلسه، مميزاً له عن أنداده، يدل لهذا مارواه سنان بن أبي سنان الأسدي الكوفي قال: (سمعت أبي يقول: قدم عبد الله بن فروخ المدينة حاجاً، فلما نزل المدينة لبس ثيابه، ثم توجه إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه، ثم أتى مالكا بن أنس للسلام عليه، فلما رآه مالك تلقاه بالسلام، وقام إليه، وكان لا يكاد يفعل ذلك بكثير من الناس، وكان لمالك موضع من مجلسه يقعد فيه وإلى جانبه المخزومي معروف له ذلك، لا يستدعى مالك أحداً إلى القعود فيه، فأقعد فيه، وساء له عن أموره وأحواله، وقال له: متى كان قدومك يا أبا محمد؟ فأعلمه أن قدومه كان في الوقت الذي أتى إليه فيه، فقال له: صدقت لو كان قدومك تقدم إذاً لعلمت بك، ولو علمت لأتيتك. وجعل مالك لا ترد عليه مسألة وعبد الله حاضر إلا قال: أجب يا أبا محمد. فيجيب عبد الله، ثم يقول مالك للسائل: هو كما قال لك.

ثم التفت مالك إلى أصحابه وقال: هذا فقيه أهل المغرب...، وكان مالك يكرمه ويعظمه..⁽²⁾

*** معاوية بن الفضل الصمادحي مولى آل جعفر بن أبي طالب (ت 199 هـ):**
(ولد بالقيروان، وقرأ بها على عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم وغيره من شيوخ إفريقية، ثم قصد المشرق في طلب العلم، وسمع من مالك بن أنس، وروى الحديث عن سفيان الثوري، وحظلة بن أبي سفيان، ثم عاد إلى بلده، وروى عنه جماعة منهم سحنون وابنه موسى، وكان معاوية ثقة مقدماً في شيوخ إفريقية..)⁽³⁾
من الآوائل:

*** عبد الملك بن أبي كريمة الأنصاري: المتوفى سنة عشر ومائتين :**

(1) المالكي. أبو بكر عید الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوم ومحمد المروسي المطوي. (بيروت: دار الغرب الإسلامي، عام 1403 هـ 1983 م) **الله** ج 1، ص 176، 0277

(2) المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، ج 1 ص 179، 180.

(3) عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، ص 257

(قال أبو العرب: عبد الملك بن أبي كريمة كان ثقة خياراً، يقال: إنه كان مستجاباً، وكان كثير الرواية عن خالد بن أبي عمران..)⁽¹⁾

(سمع من مالك والثوري وغيرهم، وسمع منه خلق من الناس، وله مناقب جليّة. وكان سحنون يقول: كان بتونس على بن زياد، وابن أشرس، وعبد الملك بن أبي كريمة، ولم يكن ابن أبي كريمة في ناحيتهما، وإنما كان رجلاً صالحاً، ورعاً صاحب أحاديث...)⁽²⁾ (كبر ابن أبي كريمة حتى كان يحمل إلى الجامع أي جامع الزيتونة)⁽³⁾:

* أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان، المتوفى سنة أربع عشرة ومائتين :

قال أبو العرب: أصله من خراسان نيسابور.. قال: دخلت مع أبي إلى القيروان في جيش ابن الأشعث، فأقمنا بها خمس سنين، ثم رحلنا إلى تونس فأقمنا بها نحو تسع سفين، فلما بلغت ثماني عشرة سنة علمت القرآن ببجدة..

سمع من علي بن زياد (الموطأ)، وتعلم منه العلم، بعد أن ارتحل من بجدة إلى تونس، ثم ارتحل إلى المشرق فلقي مالكا، وواظب عليه، وطلب عليه العلم، وسمع منه الموطأ، ثم ارتحل إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة: أبا يوسف وأسد بن عمرو، ومحمد بن الحسن، وكتب الحديث بالعراق، وتفقه بها، ثم رحل من العراق بعد وفاة مالك بن أنس رضي الله عنه إلى مصر، فوجد أصحاب مالك بوفرهم، فلزم ابن القاسم رحمه الله، وأخذ عنه (الأسدية)، وقدم بها إلى القيروان، وسمعها منه خلق كثير مع الموطأ، وغير ذلك من العلوم، وانتشرت إمامته.

قال أبو جعفر القصري: كان أسد إمام العراقيين بالقيروان كافة، مشهوراً بالفضل والدين، ودينه، ومذهبه هو السنة.

والمشهور عن أسد رحمه الله تعالى أنه كان يلتزم من أقوال أهل المدينة، وأهل العراق ما وافق الحق عنده. ويحق له ذلك لاستبحاره في العلوم، وبحثه عنها، وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين⁽⁴⁾.

(1) طبقات أفريقية وتونس، ص 215.

(2) المالكي، عبد الله بن محمد، برياض النفوس. ج 1. ص 323

(3) عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر. ص 246

(4) المالكي. عبد الله بن محمد، برياض النفوس. ج 1 ص 254، 263، 264



ميزان العمران الدائري نحو تأسيس فقهي للإقتصاد الدائري : الحلال المستدام بين المصلحة والعدالة ومالات الفعل الاقتصادي

بقلم : الأستاذ الدكتور محمد بشاري⁽¹⁾

أمين عام المجلس العالمي للمجتمعات المسلمة

أقترح أن تقودنا هذه الكلمة عبر ثلاثة أسئلة حاكمية، تُنظّم النظر وتؤطر العمل :
السؤال الأول: كيف نُعيد تعريف الثروة بحيث لا تتحول إلى مركزٍ يدور حوله
الإنسان، بل إلى أداةٍ يدور بها النفع العام؟

ينطلق الفكر الأصولي من أن علاقة الإنسان بالأشياء ليست علاقة استهلاكٍ محض، بل علاقةُ عمارةٍ وحفظٍ للميزان. فالمال أمانةٌ لا سيادة، ووسيلةٌ لا غاية. وحين نُعيد تعريف الثروة على هذا الأساس، تتبدّل وظيفة السوق: من مسرحٍ للمكاسب السريعة إلى نظامٍ أخلاقي لضبط المنفعة. هنا تتضح قيمة الاقتصاد الدائري؛ إذ لا يكتفي بتقليل الفاقد، بل يعيد إدماج الموارد في دورة حياةٍ متجددة، فتُصبح إعادة الاستخدام عنواناً للعقل العملي، وتتحوّل إدارة المخلفات إلى فقهٍ للنفع المتعدي. إنَّ الحلال المستدام لا يقف عند أسئلة الامتثال، بل يتجاوزها إلى سؤال الأثر: ماذا يُخلّف نشاطنا الاقتصادي في البيئة والمجتمع عبر الزمن؟ هذا السؤال يُدخلنا إلى

(1) كلمة الدكتور محمد البشاري في منتدى الأعمال البرازيلي للحلال بسان باولو (27 - 28 أكتوبر 2025).

مبحث المقاصد: حفظ النفس بحماية البيئة والغذاء والماء، وحفظ المال بمنع الإهدار والاحتكار، وحفظ النسل بضمنان موارد الأجيال القادمة، وحفظ العقل بالتربية على الاعتدال الاستهلاكي، وحفظ الدين بإقرار ميزانٍ قيميّ جامع. إنّ تحوّل الاقتصاد من تعظيم الربح إلى تعظيم النفع الصالح هو لبُّ الرؤية الأصولية للاستخلاف؛ فالقيمة تُقاس بقدرتها على البقاء والانتفاع والعدل، لا بحجمها اللحظيّ على المؤشر المالي.

السؤال الثاني: كيف تتحول مقاصد الشريعة من مبادئ عامة إلى منظومة عملية تُوجّه السياسات والمؤسسات؟

لا يكفي أن نقول إنّ المقاصد عدلٌ ومصلحةٌ وضرورياتٌ خمس؛ المطلوب هو ترجمةٌ مؤسسيةٌ تُحدّد القواعد والعمليات والمعايير. يمكن تلخيص خارطة التحويل في ثلاث دوائر مترابطة:

1. التحريم الوقائي: وهو إغلاق أبواب الظلم المالي والبيئي قبل وقوعه؛ فيتجلّى في الشفافية، ومنع الغرر في العقود، وتقييم الأثر البيئي كجزءٍ من مشروعية النشاط، لا ملحقةً استشارياً. بهذا يصبح تقييم المخاطر البيئية والاجتماعية عنصراً من عناصر الإباحة لا ورقةً في ملف.

2. الإلزام التكافلي: عبر أدوات أصيلة كـ الزكاة والوقف، وأدواتٍ معاصرة كآليات التمويل الأخضر المتوافق مع الشريعة. الزكاة تعيد تدوير الثروة اجتماعياً كما يعيد الاقتصاد الدائري تدوير المادة طبيعياً؛ أما الوقف فيمكن بعثه في مشاريع المياه النظيفة والطاقة المتجددة والبحث العلمي، فيتحوّل من مؤسسةٍ تراثيةٍ إلى رافعةٍ للاستدامة.

3. التنظيم التداولي: ضبط السوق بالمنافسة العادلة، ومنع الاحتكار، وتحديد معايير المسؤولية الممتدة للمنتج عن دورة حياة المنتج من المهد إلى إعادة الإدماج. هنا تغدو المقاصد إطاراً حاكماً لسلاسل القيمة: من التصميم، إلى الإنتاج، إلى الاستهلاك، إلى الاسترداد وإعادة الاستخدام.

إن تحويل المقاصد إلى عملٍ مؤسسيٍّ يقتضي لغة قياسٍ ومعايير: مؤشرات النفع المتعدي، مؤشر العدالة في التوزيع، درجة الاستدامة عبر الأجيال. المقاصد بلا مؤشرات خطاب، والمؤشرات بلا مقاصد أرقام؛ والنجاعة تولّد من تزاوجهما.

السؤال الثالث: كيف نصوغ نموذجاً عالمياً للحلال المستدام، يُخاطب الإنسانية ببلغةٍ مشتركةٍ، ويوازن بين الكفاءة والعدالة؟

العالم اليوم يبحث عن ميزانٍ كوني يحدُّ من الاختلالات المناخية والاجتماعية. والحلال المستدام قادرٌ على أن يقدم خطاباً مشتركاً:

* هو عدالةٌ بيئيةٌ لأنَّه يحفظ قواعد التوازن الطبيعي، ويُلزم الفاعل الاقتصادي بمسؤوليته عن الأثر.

* وهو عدالةٌ اجتماعيةٌ لأنَّه يمنع تراكم الثروة بغير استحقاق، ويعيد توجيه الفوائض إلى حيث الحاجة العامة.

* وهو عدالةٌ معرفيةٌ لأنَّه يُعيد تعريف «التقدم» لا بوصفه تضخماً في الناتج، بل اتساعاً في قدرة الإنسان على العيش الكريم ضمن حدود الكوكب. ولكي يصير هذا الخطاب برنامجاً عملياً، أقترح خمس ركازٍ تشغيلية:

1. النية الاقتصادية: إدراج مقاصد النشاط (النفع العام، الأثر البيئي، الإسهام المعرفي) في صلب عقود الاستثمار والحوكمة، بحيث تُراجع دورياً ضمن تقارير الأداء.

2. المسؤولية الممتدة للمنتج: اشتراط خطط استرداد المنتجات، وإعادة التدوير، وسلاسل توريدٍ منخفضة الانبعاثات، بوصفها جزءاً من مشروعية المنتج الحلال.

3. الوقف الاستدامي: تأسيس أوقافٍ تخصص عوائدها لمشاريع المياه والطاقة والزراعة الذكية، وتمويل البحث التطبيقي في الاقتصاد الدائري والمواد الحيوية.

4. التمويل الأخضر المتوافق مع الشريعة: تفعيل الصكوك الخضراء/ الاجتماعية، وصناديق الاستثمار ذات الأثر، مع مصفوفة فحصٍ شرعي-بيئي مشتركة.

5. التربية الاقتصادية: ترسيخ ثقافة الاعتدال والاستهلاك المسؤول في التعليم والإعلام والمساجد والجامعات، فالمجتمع هو البنية التحتية للسياسات لا العكس.

الاقتصاد الحلال المستدام ليس شعاراً أخضرَ بملصقٍ أخلاقي، ولا مجرد تصنيفٍ للمنتجات؛ إنَّه تحويلٌ لمنطق الثروة من جمعٍ إلى إعمار، ومن امتلاكٍ إلى أمانة، ومن ربحٍ لحظيٍّ إلى نفعٍ باقٍ. وعندما تتبنَّى السياسات هذا المنطق، تنعكس آثاره على سلاسل القيمة: فيختفي الهدر الكبير، وتُستعاد المواد، وتوطن الصناعات

النظيفة، ويُحمى الهامش الاجتماعي من الانزلاق. وحينها فقط يصبح «الامتثال الشرعي» قريباً لـ الامتثال الكوكبي.

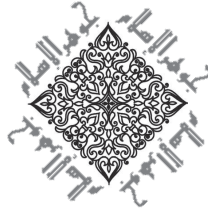
لقد علمنا تراثنا الأصولي أن المصلحة المعتبرة لا تُعرف برنين الكلمات، بل بثمرتها: إن أبقت الميزان قائماً فهي مصلحة، وإن اختل بها الميزان فهي مفسدة. والميزان هنا ليس استعارة بل قاعدة وجود: توازن الإنسان مع ذاته، ومع أخيه، ومع الطبيعة التي يحملها بين يديه. ومن ثم، فإن دورنا كباحثين لا يقتصر على الشرح، بل يمتد إلى التصميم المؤسسي للمعايير (تصميماً منهجياً لا لفظه) وبناء التحالفات بين الجامعات، والقطاع الخاص، والهيئات الشرعية، وصنّاع السياسات، لإطلاق مسارات تنفيذية قابلة للقياس والمساءلة.

أختم بثلاث رسائل قصيرة:

* إلى صانع القرار: إن أردتَ ازدهاراً يدوم، فاجعل معيارك دوام النفع واتساعه لا حجم العائد وحده؛ واربط الرخصة الاقتصادية بخطة الأثر البيئي والاجتماعي.
* إلى المستثمر: أرباحك أعظمُ بركةً حين تدخل في دورة إعمار، فتبني قيمةً تتجاوزك زماناً ومكاناً، وتُعيد للمال وظيفته الاجتماعية.

* إلى الجامعة ومراكز البحث: اجعلوا المختبر العلمي شريكاً في صياغة الفتوى الاقتصادية الكبرى؛ فمن التفاعل الحي بين العلم والمقصد يولد الحلّ القابل للتعميم.

أيها الحضور الكريم، إن مشروع «ميزان العمران» ليس إضافةً تجميليةً إلى الاقتصاد العالمي، بل اقتراحٌ لغةٍ جديدةٍ للتنمية: لغةٌ تُسند العقل بالقيمة، وتشدّ السوق بالعدالة، وتستبقي للإنسان مكانته في الكون. فإذا التقت المقاصد بعلوم العصر، وتشكلت في مؤسساتٍ ومعايير، تحوّل الحلال المستدام من فكرةٍ ملهمةٍ إلى نظامٍ ملهم.



مشروع حوار مع الباحث يحيى عبد اللطيف حول «تجديد علم الكلام عند وحيد الدين خان»

المُحَاوَر: د. يحيى عبد اللطيف

أستاذ مساعد متعاقد بقسم أصول الدين
بالمعهد العالي للحضارة الإسلامية، جامعة الزيتونة، تونس.

مجري الحوار: أ. رضا بن رجب

أستاذ أول مميز درجة استثنائية في مادة التفكير الإسلامي
بالمعهد النموذجي محمد قرج الشاذلي بأريانة ومدير تحرير مجلة الفردوس

مقدمة تعريفية

أستاذ يحيى أصدرت دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع كتابكم البكر الموسوم بـ«تجديد علم الكلام عند وحيد الدين خان - من العقائدية التجريدية إلى العقائدية التجريبية» في طبعة جذابة وأنيقة وواقعة في 276 صفحة مقاس 17×24 سنة 2019، وكنوع من أنواع التكريم لكم كمؤلف، وللراحل وحيد الدين خان (10 أكتوبر 1925 - 21 أبريل 2021) والذي كانت تجربته في تجديد علم الكلام موضوعاً للكتاب نطرح عليكم عدداً محدوداً من الأسئلة للإجابة لو تكررتم:

السؤال الأول : أستاذ يحيى لو تفضلتم بتقديم نبذة قصيرة عن علم الكلام لغير المتخصصين في العلوم الدينية.

الإجابة: لعل التسميات الأخرى لعلم الكلام من شأنها أن تقرب الصورة وتوضحها أكثر لأذهان القراء غير المتخصصين، فعلم الكلام يُسمى أيضاً بعلم العقائد وبعلم التوحيد وبعلم أصول الدين. وهو علم يُعنى بالأساس بالعقائد أي

بالإيمانيات والغيبيات والمسائل النظرية كمسألة الخلق والمصير والنبوة والملائكة... إلخ وذلك على خلاف الفقه الذي يُعنى بالعبادات والمعاملات والمسائل العملية كالزكاة والمواريث والزواج والبيع والشراء... إلخ وقد نشأ علم الكلام في السياق الإسلامي لغرض الإجابة عن المشكلات العقدية التي كانت تواجه المسلمين وخاصة حديثي العهد منهم بالإسلام بسبب روايتهم العقدية القديمة، وكذلك للدفاع عن عقيدة المسلمين تجاه العقائد المخالفة كالمسيحية، واليهودية، والمانوية، وغيرها. وقد تحوّلت وظيفة هذا العلم لاحقاً، فصار يشمل الدفاع عن مقالات فرقة بعينها تجاه الفرق المخالفة كاللادفاع عن مقالات أهل السنة في الاعتقاد من الاعتراضات التي يوجهها إليها الشيعة والعكس أيضاً صحيح إذ أن كل فرقة تدافع عما تراه صائبا وتحاول بيان تهافت آراء المخالف. ويُجمل الإيجي في تعريفه لعلم الكلام ما ذكرناه إذ يقول: علم الكلام هو «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام».

السؤال الثاني: ما المقصود بتجديد علم الكلام اليوم خاصّة وأنّ هناك من يرى أنّ هذا العلم قد مات وفقد مبررات وجوده تحت أيّ مسمّى كان على اعتبار انتهاء عصر الدّعوة وبداية عصر الحريّات العقائديّة؟

الإجابة: في الحقيقة هناك مقاصد متعددة لتجديد هذا العلم وليس مقصداً واحداً، لأنّ المشاريع التجديدية لعلم الكلام لم تُبنَ بعد على أسس توافقية جامعة، بل ما زالت مجرد محاولات فردية مختلفة، متباعدة أحياناً كل البعد عن بعضها البعض، ما يجعل مقاصد التجديد الكلامي وفقها متباينة كل التباين.

فمن هؤلاء من يذهب إلى أنّ المقصد من «علم الكلام الجديد» - لا من «تجديد علم الكلام» وينبغي الانتباه هنا إلى دلالة التسميات المختلفة - هو القطع مع الرؤية التراثية للدين الإسلامي وتأسيس رؤية أخرى معاصرة تحوّل البحث الديني من مركزية الإلهي إلى مركزية الإنساني، وتستعيز عن المنطق والجدل بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة والهرمنوطيقا والتأسيس الكلامي للتعددية وقبول الآخر والتسامح، وغير ذلك من القضايا والمقاربات المختلفة. ويبدو أنّ هذا التوجه هو السائد حالياً في العالم العربي، ومن أبرز ممثليه د. عبد الجبار الرفاعي الذي نجح في إنتاج عدّة كتب وتنظيرات في هذا الباب.

وفي مقابل هذا الاتجاه، تبرز اتجاهات أخرى لعلّ من أهمها الاتجاه الذي يدعو إلى «تجديد علم الكلام» عوضاً عن «علم الكلام الجديد» الذي يعني - بحسب د. عبد الجبار الرفاعي - قطعاً تاماً مع علم الكلام القديم. ويرى أصحاب هذا الاتجاه على غرار محمد المستيري أنّ الحاجة إلى تجديد علم الكلام ملحة بسبب انتشار مظاهر الإلحاد وتعدد الفلسفات الحديثة وكثرة الشبهات التي تشوش على الناس عقائدهم. ومن الطبيعي أن يكون في مقابل «الغزو الثقافي» الذي نشهده يوماً في مجالات شتى «مقاومة ثقافية» يكون لعلم الكلام فيها موقع مهم بعد تجديده ليصبح صالحاً للإجابة على التحديات المعاصرة.

السؤال الثالث : لماذا اخترتم البحث في تجديد علم الكلام في فكر وحيد الدين خان، دون سواه من شبه القارة الهندية؟ أليس شبلي النعماني (1857 - 1914) أوّل من دعا وألّف في هذا الموضوع كتابه «علم الكلام الجديد» ونشره في 1903؟

الإجابة: بداية، لا بد من تصحيح هذه المعلومة الشائعة، لأنّه عند التحقيق تبين لنا أنّ أوّل من دعا إلى علم الكلام الجديد هو أحمد خان المتوفى سنة 1306 هـ/ 1898 م، وذلك في إحدى محاضراته التي تحدث فيها عن الشبهات المثارة حول الإسلام، حيث ذكر اصطلاح «علم الكلام الجديد» في معرض حديثه عن انتشار المذهب الطبيعي، كما تشير إلى ذلك المصادر والمراجع. وسواء كانت بداية هذا المصطلح مع أحمد خان أو مع شبلي النعماني، فإنّ كلا الشخصيتين لم يُعرف عنهما مشروع كامل ومتكامل لتجديد هذا العلم، بل اكتفيا بالدعوة إليه وبكتابة بعض الأفكار المتناثرة في الموضوع، التي لا ترتقي في الحقيقة إلى مشروع له تنظيره وتطبيقه العملي الكامل والواضح، كما هو الشأن لدى وحيد الدين خان.

إنّ وحيد الدين خان يُعدّ وريث هذه المدرسة الهندية، فهو تلميذ عبد الباري الندوي، وقد استفاد من سليمان الندوي، وكلاهما تتلمذ على يد شبلي النعماني. فسند وحيد الدين خان التجديدي موصول في الحقيقة بهذه السلسلة، وما قام به يُعدّ تطوراً لدعوتهم وتجسيدها في مشروع بلغ حداً كبيراً من النضج، سواء على المستوى التنظيري كما يظهر ذلك من بعض كتبه مثل «تجديد علوم الدين» و«البعث الإسلامي: المنهج والشروط» و«الإسلام والعصر الحديث»، أو على المستوى التطبيقي مثل كتابه الأشهر «الإسلام يتحدّى» وكتابه «الدين في مواجهة العلم» وغيرهما.

السؤال الرابع : تقولون في تقديم كتابكم إنّ وحيد خان استطاع (إلى حد ما) أن ينقل علم الكلام على مستوى المنهج من التجريدي إلى التجريبي... وضح لنا طبيعة هذه النقلة ومبرراتها في تقديرك؟

الإجابة: نعم، لقد صرّح وحيد الدين خان في مقدمة كتابه «الإسلام يتحدى» أنّ كتابه سيتخذ منحى علمياً تجريبياً، معتبراً النقص الشديد للكتب والدراسات في هذا المجال، عوضاً عن المنحى الفكري الفلسفي الذي امتلأت به المؤلفات والمطولات. وقد ذكر في كتبه الأخرى ضرورة تكييف علم الكلام الجديد مع شبّهات العصر، فيتخذ لغته لمخاطبته ويعتمد مناهجه واستدلالاته لإلزامه، وذلك بعيداً عن سلوك طرق التلفيق والأسلمة لكل ما ينتجه الغرب، والذي يراه وحيد الدين خان مضرّاً بالأمة من حيث تمثيلها حضارة ذليلة تابعة تعيش حالة على غيرها.

وكذلك بعيداً عن الطرق الكلامية والفلسفية القديمة الوعرة التي لم تعد تصلح لهذا العصر، إذ شبّه الكلام القديم بسيف ودروع المسلمين الذين جاهدوا الصليبيين من قبل، فلا يمكن استدعاء تلك الأسلحة لمحاربة خصوم اليوم، وإنما يمكن الاحتفاظ بها في المتاحف. هكذا شبّه وحيد الدين خان إصرار المدارس الدينية التقليدية على تدريس علم الكلام القديم.

وتتجلى طبيعة النقلة التي قام بها وحيد الدين خان في مناقشته لأسس المنهج التجريبي واعتماده عليه لإلزام الداروينيين والماركسيين والفرويديين وغيرهم. وقد فرّق أثناء استعراضه وتقسيمه للأدلة العلمية بين الحقائق العلمية والنظريات والفرضيات العلمية، واستند على بعضها في دحض شبّهات الخصوم، ومن ذلك اعتماده على النظرية المشهورة بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية (Second law of thermodynamics) في سلبه صفة الأزلية عن الكون.

كما تظهر طبيعة هذه النقلة أيضاً في تقريره للعقائد الإسلامية، كاعتماده لإثبات حقيقة الوعي على نظريات علمية مثل نظرية الموجة المخيئة (Brain Wave Theory)، وعلى أقيسة تمثيلية لمعطيات تجريبية استمد بعضها من علم دراسة الحيوان (zoology) وأخرى من علم الفلك الإشعاعي (Radio Astronomy).

السؤال الخامس : من خلال تتبعك وتقييمك لمدى تمثّل وحيد الدين خان لمنهجه في تجديد علم الكلام في مؤلفاته ومختلف مداخلاته وتدخلاته في شبه القارة الهندية

هل تراه عبّر عن رأيه ومضى؟ أم أسّس لمدرسة حديثة تتعلّم فيها الأجيال الجديدة فنّ الجدل الوجودي وأساليب البرهنة والاستدلال في مجال العقيدة بما يناسب ثقافة العقل والعلم؟

الإجابة: يرى بعض الباحثين أنّ علم الكلام مثّل محطة من محطات وحيد الدين خان المبكرة التي تجاوزها لاحقاً إلى محطات أخرى تتعلق بالتصوف والروحانية والتنظير للاعنف الجذري والسلام التام... إلخ. إلّا أنّ ما يبدو لي هو أنّ وحيد الدين خان لم يتخلّ في أي محطة من محطاته عن تجديد علم الكلام وتطويره، وقد أثبت هو بنفسه أنّ من وظائف علم الكلام تذليل الصعوبات أمام إقناع الآخرين برسالة الإسلام.

ولا يخفى أنّ أكثر الأنشطة التي كرّس لها وحيد الدين خان بقية عمره هي دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في المناطق النائية، وقد كوّن من خلال محاضراته وكتبه تلاميذ وأتباعاً تلقوا عنه - في مركزه الذي أسسه باسم «المركز الإسلامي» قبل أن يتحوّل اسمه إلى «المركز العالمي للسلام والروحانية» - فنون المناظرة الكلامية وأساليب الإقناع. كما أنّ اتجاهه إلى الروحانية وتنظيره للسلام كان في إطار الحوار مع الأديان الذي لا يخلو من تنظيرات وتأصيلات كلامية مختلفة.

كل هذا يجعلنا نجيب عن سؤالكم بأنّ وحيد الدين خان - بحسب تقديرنا - لم يعبر عن رأيه ويمض، ولكنه لم يبقَ أيضاً على ذلك الرأي طويلاً، بل طوّره لاحقاً نحو اتجاه آخر أقرب إلى التصوف والروحانية الحديثة منه إلى العلوم التجريبية.

السؤال السادس: ما أبرز النتائج والخلاصات التي توصّلتكم إليها من خلال بحثكم حول جهود وحيد خان في تجديد علم الكلام؟

الإجابة: حاولت في كتابي أن أثبت أنّ وحيد الدين خان قام بتجديد علم الكلام لا بتأسيس علم كلام جديد كما نظّر هو لذلك وادّعاه، لأنّه وإن جدّد بعض المضامين وأدخل بعض المسائل وغير من اللغة الكلامية، إلّا أنّه بقي وفيّاً لعلم الكلام القديم من حيث قوالب الجدل والإلزام، ولم يشذّ عن المعجزة لإثبات النبوة وعن دليل العناية والاختراع وغيرهما. كما بقيت العقائدية التجريبية أكثر بروزاً في مستوى إلزام الخصوم وردّ الاعتراضات منها في مستوى التقرير العقدي، رغم حمل كتابه «الإسلام يتحدّى» عنواناً فرعياً هو «مدخل علمي إلى الإيمان».

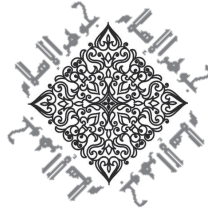
إنّ ما قام به وحيد الدين خان، رغم كل النقد الذي يمكن أن يوجّه إليه، يُعدّ خطوة فعلية نحو تجاوز كلاسيكيات علم الكلام والانفتاح بروح جديدة على منتجات العالم الغربي، بعيداً عن الانكفاء والتلفيق والاستلاب الذي ساد الساحة الفكرية الإسلامية المعاصرة.

السؤال السابع : ما تقديركم لحجم الفراغ الذي سيحدثه غياب وحيد الدين خان عن ساحة العلوم الدينيّة عامّة وعلم الكلام ونشر ثقافة الحوار الديني في شبه القارة الهنديّة خاصّة؟

الإجابة: وحيد الدين خان - رحمه الله تعالى - شخصية موسوعية فريدة من نوعها، يصعب حصرها في مجال معيّن لغزارة نتاجها العلمي وسعة اطلاعها وعمق أسلوبها، كما يصعب التعامل معها لجمعها أحياناً بين روافد قد تبدو متناقضة. فهو الماتريدي الحنفي الصوفي، وهو المتأثر بالمدرسة السلفية، وهو الذي انتقل من العمل الحزبي إلى الانتماء الصوفي. فتأسيسه لمركزه الذي جمع بين التنظير للسلام العالمي ونبد العنف وبين دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وغير ذلك مما يطول ذكره في حق الرجل الذي ترك بكل تأكيد فراغاً كبيراً في شبه القارة الهندية بسبب وزنه ومكانته فيها. فهو يُعدّ ثالث ثلاثة تولوا معالجة قضية الفكر الإسلامي المعاصر تجاه الغزو الثقافي، وهم: أبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ووحيد الدين خان، بحسب ما أشار إلى ذلك د. عبد الصبور شاهين في تقديمه لكتاب «الإسلام يتحدّى».

وقد كان وحيد الدين خان ممثلاً للهند في المحافل الكبرى، وله اعتباره لحصوله على جائزة السلام العالمية وجوائز مماثلة في هذا المجال، خاصة وأنّ له دوراً فعالاً في تهدئة الصراعات الطائفية في الهند في أكثر من مناسبة، ما جعله موضع قبول واحترام كبيرين من قبل غير المسلمين.

ولعلّ مما يزيد من مرارة فقدانه هو عدم استفادة العالم العربي من أفكاره كما ينبغي، ولا أدلّ على ذلك من أنّ كتبه التي بلغت أكثر من مئتي عنوان لم يُترجم منها سوى عشرين كتاباً تقريباً، معظمها ترجمات قديمة رديئة لا تخلو من أخطاء جسيمة، تكرر بعض المضامين تحت عناوين مختلفة. كما أنّ الدراسات والمقالات المكتوبة عنه باللغة العربية لم تتجاوز التوصيف والتعريف دون الغوص في عمق إنتاجه الفكري الذي ما زال إلى اليوم مجهولاً لدى الكثيرين، ولا نعرف عنه إلا النزر القليل بسبب شبه انعدام الترجمة بين اللغتين العربية والأردية، وبسبب تهميش كتبه الموضوعية أو المترجمة إلى اللغة الإنجليزية.



رسالة من رسائل في التصوف لسليل الخطباء وكبار الشيوخ والأولياء

محمد ابن عبّاد الرندي النفزي ثمّ الفاسي
(792-733)

[الرسالة السادسة من الرسائل الصغرى]

بعناية: الأستاذ عبد الهادي النجار الشاذلي
(الجزء الثاني من الرسالة السادسة)

جواب السؤال الثاني

كيفية ميل النفس إلى ما فيه المشقة [71]⁽¹⁾

وقد يتعجب من هذا من يسمعه⁽²⁾ فيقول: «كيف تميل النفس إلى ما فيه المشقة وهي منافية لحظّها؟» - ولم يدر أنّها إنّما تطلب حظوظاً⁽³⁾ لا تتوصّل إليها إلاّ بترك حظّها من الراحة. كمن استولى عليه حبّ الجاه والمال وقضاء الأوطار منهما والآمال؛ فتراه يرتكب الأخطار ويجوب القفار ويخوض البحار ويتعرّض لأنواع المضارّ قد حمّله تأميل حصول أغراضه على استحلاء هذه الشدائد، وقد لا ينال ما أمّله من تلك الفوائد. ولا فرق بين المسألتين؛ إلاّ أنّ هذه أغراض معروفة لعامة الناس وسبلها واضحة لا إشكال فيها ولا إلتباس؛ وما ذكرناه يختصّ به أهل الدين ومن ارتفعت أحواله عن أحوال عامة المسلمين - بل من جهل [72] النفس وشدة

(1) بين المعقوفتين رقم صفحة من الرسائل الصغرى تحقيق نويا.

(2) الإسكوريال: - من يسمعه.

(3) الإسكوريال: حظوظها.

غباوتها أنّها تفعل الأفعال الشائقة لغرض تافه؛ كالذي يعرض نفسه لمعارك الحرب ومباشرة الطعن والضرب ليشنى عليه بالشجاعة والجلادة بعد موته. وهذا جهل عظيم، وأي منفعة للنفس في ذلك بعد الموت؟

وقد تفعل ذلك من غير تصوّر غرض ولا تحصيل عوض⁽¹⁾ كما قال علي بن حزم في كتاب السياسة: «وأحمق من هؤلاء قوم شاهدناهم لا يدرون في ما يبذلون أنفسهم؛ فتارة يقتلون زيدا عن عمر، وتارة يقتلون عمراً عن زيد، لعل ذلك يكون في يوم واحد، فيتعرّضون للمهلك بلا معنى، فيقتلون إلى النار ويفرّون إلى العار. وقد أُنذر بهؤلاء رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - في قوله: «يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل»⁽²⁾. ومثال مسألتنا ما يعترى بعض الناس من ميل نفوسهم إلى التعمّق في العبادات والإيغال في فنون المجاهدات وإلقاء النفس في المهلكات، وفرضها بذلك استعجال أحوال اتصف بها الأكابر والرؤية لكمالها بنظرها القاصر، استبدالاً منها هذه الأغراض بما تركته من أغراضها الدنياوية واستظهاراً لصدق قصدها في زعمه بتعاطي الوظائف الدينية. فلم تلبث إلّا يسيراً حتّى سئمت الأعمال والأوراد وطالت عليها الآماد فنكصت على عقبها ورجعت القهقري إلى أقبح من مرادها وأربها. ولو كانت صادقة في قصدها لأتت الأمر من باب مخالفتها بالكلية، ولعلمت أنّ ذلك لا يتأتى لها إلّا باتباع الملة الحنيفية؛ فلعمري لمن أخذ نفسه باتباعها في هذا الزمان والجري على أسلوبها العجيب الشأن، ليكابدن من الشدّة ما لم يخطر له قطّ ببال، وليتجرعن من الغصص ما يعجز عن تجرعه آحاد الرجال. وبحسب ذلك يكون أجره موفوراً وسعيه مشكوراً. وذلك لصحة قاعدة أنّ كلّ ما يثقل على النفس خير محض.

جواب السؤال الثالث

في وجه خيرية المشاقّة على النفس

وبيانه أنّ الحقّ تعالى أوجب على عباده إقامة عبوديته، وأخبرنا أنّه إنّما خلقهم لأجلها، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]؛ وهذه الصفة من [73] أجل ما وصف به أنبياءه ورسله من الصفات العظام وسماهم

(1) الإسكوريال: غرض.

(2) رواه مسلم 2908؛ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتّى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل؛ فقيل، كيف يكون ذلك؟ قال: الهرج. القاتل والمقتول في النار.»

به من الأسامي الكرام. وخصوصاً نبينا محمداً - عليه الصلاة والسلام. فلقد حاز من ذلك غاية الإمكان وتبوأ من درجاتها أعلى مكان وبرز بها على العالمين في يوم الدين، وكان تحت لوائه كافة النبيين والمرسلين. ومن أوجز ما قيل فيها وأبلغه قول بعضهم: «العبودية مشاهدة الربوبية».⁽¹⁾ وهذه عبارة جامعة لمعاني العبودية على مذهب هذه الطائفة. وهي إشارة إلى مقام الإحسان المذكور في حديث جبريل - عليه السلام. وقيل: «العبودية أن تكون عبده بكل حال، كما أنه ربك بكل حال»⁽²⁾؛ وقيل: «العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضى بالموجود، والصبر عن المفقود»⁽³⁾. وقيل غير هذا.

وحاصل إشاراتهم أن العبودية صفة قائمة بالعبد تحمله على امتثال الأوامر واجتناب النواهي والرضى بالأقدار. ولها أول في مقام الإسلام، وآخر في مقام الإحسان. ولا صارف للعبد عن إقامتها في مقاماتها إلا النفس الامارة، ولا سبيل إلى استسلامها لأحكام الربوبية إلا بمجاهدتها على طريقة هذه الطائفة المختارة. قال الله - عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]. وقال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40-41]. وفي الخبر: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»⁽⁴⁾. وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام: «عاد نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها». وقال الجنيد: «أرقت ليلة فقمْتُ إلى وردي فلم أجد ما كنتُ أجد من الحلاوة. فاردتُ أنام فلم أقدر عليه. ففعدتُ فلم أطق القعود. ففتحتُ الباب وخرجتُ؛ فإذا رجل ملتف فيعباءة، مطروح على الطريق؛ فلما أحس بي رفع رأسه وقال: «يا أبا القاسم إلى الساعة؟» فقلت: يا سيدي من غير موعد. فقال: (بل سألتُ محرَّك القلوب أن يحرك لي قلبك). [74] فقلتُ: قد فعل فما حاجتك؟ فقال: (متى يصير داء النفس دواءها؟) فقلتُ: إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها. فأقبل على نفسه وقال: (اسمعي! قد جاوبتك بهذا الجواب سبع مرَّات فأبيتِ إلا أن تسمعيه من الجنيد، فقد سمعتِ). وانصرف عني ولم أعرفه».⁽⁵⁾ فتأمل هذه الحكاية ترى فيها العجب. والحكايات عنهم في هذا المعنى أكثر من أن تحصى.

(1) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الرسالة القشيرية، عني به: أنس محمد عدنان الشرفاوي، جدة: دار المنهاج، باب العبودية، ص 462.

(2) الرسالة القشيرية، باب العبودية، عن ذي نون، ص 461.

(3) الرسالة القشيرية، باب العبودية، عن ابن عطاء، ص 462.

(4) أخرجه البيهقي في كتاب الزهد (343) ص 157 عن ابن عباس.

(5) الرسالة القشيرية، باب مخالفة النفس وذكر عيوبها، ص 461.

وفوائد هذه المجاهدات والرياضات حاصلة في البلايا التي يتبلى الحق تعالى بها بعض عباده لمنافاتها لإرادتهم وتنغيصها لشهواتهم، فيستفيدون باحتمال ذلك والصبر عليه مذلةً وافتقاراً وانكساراً؛ وهي من أخلاق العبيد المطلوبة منهم. وأهل البلايا هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء. وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، أنهم أهل الشدائد والبلاء مثل أيوب - عليه السلام؛ قرضوا بالمقاريض، ونشروا بالمنشير، وكانوا سبعين نبياً. فلهذه المعاني كان كل بلاء نعمة، كما أن كل ما يثقل على النفس خير.

جواب سؤال رابع

في بيان أمور خفيفة محمودة

فإن قلت: ينبغي على هذا أن يكون وجود كل ما يخفف على النفس من الأعمال أو يصيبها من النعم والرخاء شراً وبلاءً، وأن يستحسن سؤال الثقل والبلاء وتمنيهما لكونهما خيراً ونعمةً أو يجوز ذلك؛ قلت:

أما السؤال الأول، فلا يلزم لأننا نجد أنواعاً من أعمال البر الخفيفة على النفوس محمودة، وضروبا من النعم المستلذة لها خيراً محضاً لا شر فيها، كالخفة التي يجدها بعض الناس في العمل عند فراغه من الأشغال الدنيوية، وزوال بعض العلائق القلبية؛ وعند شكر كل نعمة طال ما كان يؤملها من نفعاً ودفع فأنعم عليه بها، وعند إغاثة لهفان وإطعام جوعان، وإكساء عريان وسقي عطشان، وتفريج يтим وقضاء دين [75] غريم، وما أشبه هذا من أنواع الأعمال الخفية المحمودة. وكذلك خفة النعم المسداة إلى العبد والفرح بها من حيث كونها وسيلة إلى طاعة الله وعبادته؛ كنعمة المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب والمنكح. بل نقول: الفرح بالنعم من حيث كونها ملائمة لطبعه، لا من حيث توصله بها إلى أغراضه المذمومة، محمود على ما يأتي بيانه.

جواب سؤال خامس

في وجه المنع من سؤال المشاق وتمنيها

وأما السؤال الثاني وهو استحسان سؤال البلاء وتمنيه أو جوازهما؛ فإنما يصح ذلك لو لم يرد فيه نهى. فلما ورد فيه النهي وجب ألا يجوز. فقد روي في الصحيح من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموهم فاصبروا». وفيه من حديث عبد الله بن أبي أوفى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال

السيوف.» وفي الصحيح أيضاً من حديث أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عاد رجلاً من المسلمين قد خفت حتى صار مثل الفرخ. فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله آياه؟ قال: (نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا.) فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه! أفلا قلت اللهم اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. قال: فدعا الله له فشفاه.» وفي بعض روايات هذا الحديث: «لا طاقة لنا بعذاب الله.» ولم يزل من شأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الدعاء بإسباغ النعم والمعافة من النقم. فقد روي في الصحيح أن أكثر دعوة كان يدعو بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «اللهم اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.» - وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة: «أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يتعوذ من سوء القضاء ومن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء [76] ومن جهد البلاء.» إلى غير ذلك من أدعيته واستعاذاته - صلى الله عليه وسلم - وقد قال - صلى الله عليه وسلم - في بعض المواطن التي ناله المشركون فيها بالأذى: «ولكن عافيتك هي أوسع لي.»

والحكمة في ذلك أن البلاء غير مرادة لذاتها؛ بل لِمَا فيها من الفوائد التي ذكرناها، ومن تضعيف الثواب الموعود به الصابرون عليها. وجميع ذلك قد يعطيه الحق تعالى وأضعافه لِمَنْ شاء من غير نزول بلاء أو تحمّل عناء، كما ورد في الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «لله أضن بعبد من أحكم بكريمة ماله حتى يقبضه على فراشه.» وفي الخبر أيضاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن لله عبداً يرضن بهم عن الأمراض والأسقام في الدنيا، يحييهم في عافية ويميتهم في عافية ويدخلهم الجنة في عافية.» فالواجب على العبد أن يسأل مولاه الفضل المطلق لا من حيث البلاء والمشقة.

وأيضاً من الآداب اللازمة للعبد أن لا يسأل مولاه ولا يتمنى عليه شيئاً من المشاق لأنه يحتاج في ذلك إلى فضل قوة وعزيمة وصبر، وقد خلق ضعيفاً لا يقدر على مقاومة ذرة أو بعوضة لو سلطت عليه إلا بتأييد من الله وعون. فيقع من سؤال ذلك وتمنيه في عظيم من الدعوى، فيخاف إذ ذاك أن يرد إلى نفسه ويوكل إليها فيهلك؛ حسبما وقع لبعض الناس؛ وقد كان الشافعي - رحمه الله - إعتل علة شديدة فكان يقول: «اللهم إن كان في هذا رضاك فزدي منه.» فكتب إليه المعافري من سواد مصر: «يا أبا عبد الله لست وإيانا من أهل البلاء فنسأل الرضى؛ الأولى بنا أن نسأل الرفق والعافية.» فرجع الشافعي عن قوله وقال: «أستغفر الله وأتوب إليه.» فكان بعد ذلك يقول: «اللهم اجعل خيرتي فيما أحب.»

وما ورد عنهم من مثل قوله:

أَرِيدُكَ لَا أَنِّي أَرِيدُكَ لِلثَّوَابِ وَلَكِنِّي أَرِيدُكَ لِلْعَقَابِ
وَكُلُّ مَآرِبِي قَدْ نَلْتُ مِنْهَا سَوَى مَلْذُوزٍ وَجِدِي بِالْعَذَابِ [77]

وقول سمنون:

وَكَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي⁽¹⁾

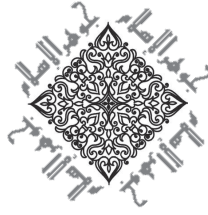
وقول معاذ بن جبل عند الموت: «اخنقني خنقك. فوَعَزْتَكَ إِنَّكَ لتَعْلَمَنَّ قلبي يُحِبُّكَ». فذلك كله من غلبات الحال واستيلاء سلطان الوجد عليهم. ومثل هذا قد يغلب على المحبين في مقام المحبة كما يغلب عليهم البسط والإذلال، فينطقون بأشياء منكورة في الظاهر. وقد ينتهي بعضها إلى ما يشبه الكفر. وهم في جميع ذلك معذورون وفي مقاماتهم العالية محفوظون. وقد قال الشبلي: «المحب إذا سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك.»⁽²⁾ و«حكى أن سمنون لما انشد البيت المتقدم قال بعض أصحابه لبعض: «سمعت البارحة، وكنت بالرستان صوت أستاذنا سمنون بن حمزة يدعو الله تعالى ويتضرع إليه ويسأله الشفاء.» وقال آخر: «وأنا أيضاً كنت سمعتُ هذا البارحة وكنت بالموضع الفلاني.» فقال ثالث ورابع مثل هذا. فاخبر سمنون وكان قد امتحن بعلّة الأسر وكان يصبر ولا يجزع؛ فلما سمعهم يقولون هذا ولم يكن هو قد دعا ولا نطق بشيء من ذلك علم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدباً بالعبودية وسترأ لحاله؛ فأخذ يطوف على المكاتب ويقول: «ادعوا لعمكم الكذاب.»⁽³⁾ وسمنون هذا من المحبين وله في مقام المحبة أعاجيب. فالواجب على العبد سؤال العافية وتمنيها والرضى بها، وذلك باب من أبواب الأدب. فإذا ابتلي فالواجب حينئذ الصبر والاستسلام والرضى بجريان الأحكام، والعلم بأنه سلك به سبيل المصطفين من الأنام.

فتبين بما ذكرناه أن العبودية التي أشرنا إليها لا تتم بأنواع من المجاهدات والمكابدات؛ ومرجع جميعها إلى معاملات بدنية وقلبية. فإن وجد المريد شيخاً مرشداً يهديه إلى مسالكها ويحميه عن مهالكها، ذا طريقة سنّة وهمة عليّة، فليتلّق بأذْياله، ولينسج على منواله، وليقتد به في أقواله وأفعاله وليتحقق أنه حصل على الكبريت الأحمر، ونال من السعادة الأبدية الحظّ الأوفر.

(1) الرسالة القشيرية، سمنون بن حمزة، ص 169.

(2) الرسالة القشيرية، باب المحبة، ص 656.

(3) الرسالة القشيرية، سمنون بن حمزة، ص 169.



التعريف الوجيز بكتاب التهجي من الألف إلى الياء

بقلم الاستاذ صالح العود

باحث وكاتب خمسين عاما

هو كتابٌ لمن عرفه أو اطّلع عليه أو قرأ فيه، سهلٌ وميسّر، ولذا شق طريقه إلى عقول الناشئة ليتعلموا به اللغة العربية في المهجر من بلاد الغرب.

وقد مرّ على تأليفه ما يفوق (الأربعين) عامًا، ولا يزال - ولله الحمد - إشعاعه مستمرًا حتى اليوم، إذ هو الوسيلة بلا شك التي يستعين بها المعلم (ة) في تعليم مادة اللغة العربية، خاصةً للذين هم في أعمار الصغار.

في فترة السبعينيات من القرن الماضي، لم تكن تتوفر كتب مناسبة لأبناء المهاجرين، سوى قلة كانت تُطرح في بعض الأسواق أو المكتبات، أو تلك التي كانت توزعها الملاحق الثقافية لبعض السفارات العربية.

وكانت تلك الكتب لا تلائم عقول ولا نفسيات الناشئة القاطنة في بلاد الغرب، ولا تتناسب مع برمجة تعليم سويغات في آخر أيام الأسبوع. أعني: (الست والأحد) فضلًا عن أن موضوعات تلك الكتب مشحونة بالرموز الوطنية، والتقاليد البيئية، وعلى العموم فهي ذات صبغة علمانية، لا تجد فيها بتاتًا لفظة توحى بالدين، ولا إشارة إلى أخلاق، ولا توجيه رباني.

ولما كتب الله لي الإقامة في وسط بلاد الغرب منذ العام (1976م)، بعد ما أنهيت دراستي الجامعية، غدوت أمتن التعليم في حياتي بجهات عديدة، مثل الجمعيات،

والمساجد، وقاعات الثقافة، حتى انتهت واهتديت إلى تأسيس مدرسة عربية في عام 1983م، تطوّرت وتألّقت مع الزمن.

كنت في الحقيقة، أعلم الناشئة بما أختاره من الكتب المستوردة، إلا أنني بعد فترة من الزمن، عيّل صبري، إذ وجدتها لا تُجدي نفعاً إذ شتان بين ناشئة في أوطانها العربية، وناشئة وُلدت في بلادٍ غربية تعيش مع والديها.

ومن ثمّ عمدتُ إلى وضع كتاب في تعليم اللغة العربية، يلائم عقول الناشئة والبيئة التي هم فيها، وتوخّيتُ عند التأليف مواصفات اهتديت إليها بتوفيق الله جلّ في علاه، ثم بعلمي وتجربتي في ممارسة التعليم، واستقرائي للواقع الذي تعيشه الناشئة، فخرج كتابي (الأول) هذا، ضمن سلسلة من الكتب لجميع مستويات (المرحلة الابتدائية) كلها، وهي كما يلي:

1. التهجي من الألف إلى الياء - 2. دروس التهجي - 3. القراءة الميسرة
- 4. القراءة الصالحة / (ثلاثة أجزاء) - 5. المنتخب من أدب العرب / سنة أولى متوسط

كان الكتاب الأول، المفتاح: سابقاً وحاضراً ومستقبلاً، لمن أراد أو يريد دخول صرح اللغة العربية الممرّد: حيث يتعلم حروفها الأبجدية من ألفها إلى يائها، ثم إلى كلماتها المركبة من حروفها المفردة، بأنواعها ومعانيها وحركاتها المتعددة والمتنوعة، إلى أن يصل الناشئ (ة) إلى قراءة جمل قصيرة هادفة، وبالتالي يصبح بعد فترة عارفاً جيداً بالأبجدية والقراءة، كما يرام، بل أيضاً متحدثاً بها بين الفينة والأخرى، بلسان عربي مبين، بعدما كان يجهله، وقد أتبعته كتابي (التهجي) بكتاب آخر مرادفاً له بعنوان: (المحادثة بالعربية) طبع مرتين ولله الحمد والفضل.

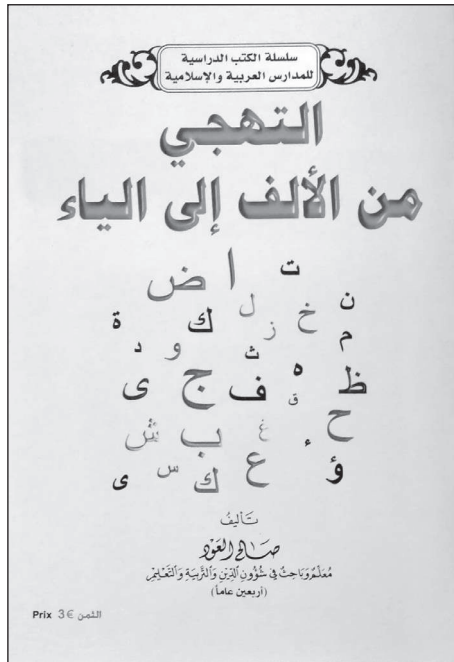
وهنا أحب أن ألفت انتباه القارئ (ة) خصوصاً ممن يعملون في مهنة التعليم الشريفة بالمرحلة الابتدائية خاصة، وفي صفوفها أو مستوياتها الأولى: (الأول والثاني والثالث)، فأقول، ومن الله تعالى الرضا والقبول: لما انتشر هذا الكتاب (التهجي)، وفرض وجوده، واستقر تعليمه في ساحة التعليم العربي بديار الغرب الأوروبي، فأقبلت عليه بلا تردد: جمعيات ومدارس ومساجد ومنازل، إذ وجدوا جميعاً فيه ضالّتهم، مما يفسّر انتشاره الواسع، بل والكاسح لجميع كتب التعليم، وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى، وهي أيضاً دليل على رضا المعلمين والمعلمات من كل حذب وصوب - خصوصاً السادة الأفارقة - إذ لا يرون عنه بديلاً ولا عوضاً، لأن الفائدة منه أصبحت قطعياً ملموسة وليس مرجوة فقط، ومعترف بها من أربعة

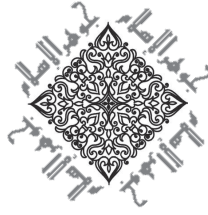
أطراف هم أصحاب القرار بلا منازع : (-1 ادارة التعليم، 2 - المعلم (ة)، -3 ولي التلميذ، -4 التلميذ(ة).

ونظرا للنتائج الباهرة لكتابي (التهجي)، كنت دائما أعتني به غاية الاعتناء، فأوفره في طباعة جميلة، وبألوان كثيرة، وصور معبرة للكلمات، وبأرخص الأثمان، وكنت أيضا لا أتأخر في تقديمه بكميات معلومة «هدية» في الداخل والخارج، على دور التعليم ببلاد افريقية الواسعة، وأخص بالتذكر هنا : نيجيريا / غانا / بنين / مالي / السنغال / ساحل العاج، فقد زودتُ مدارسها في عام (2024) بأكثر من (سبعة آلاف كتاب) من تلك السلسلة المفيدة .

كانت الطبعة (الأولى) لكتابي (التهجي) في العاصمة باريس وكذلك (الثانية)، ثم حوِّلتُ طباعته إلى المغرب بمدينة فاس، ثم أخيرًا استقرتُ ببيروت: وقد صدرت منها لهذا العام (2025 م / 1446 هـ) : الطبعة السابعة عشرة.

اللهم انفع به الحاضرين واللاحقين، كما نفعت به السابقين من عدة أجيال، كانوا صغارا، واصبحوا اليوم كبارا، فلك الحمد والشكر يامعين، فأنت الذي بك نستعين.





ارحموا غربة القرآن الكريم...

بقلم الدكتور محمد التهامي الحراق

(كاتب وأكاديمي مغربي)

يُصاب المرء بالدوار من شدة «الحملة» على القرآن الكريم في السياق المعاصر باسم «البحث العلمي» و«النقد الكتابي» و«الدراسات القرآنية» و«القراءة التاريخية النقدية»؛ وكذا باسم شعارات «التنوير» و«الإصلاح» و«التجديد»... بحيث تطلبُ هذه «الحملة»، من وجه جلي أو خفي، أمرين متلازمين: تشكيك المسلمين في كتابهم بانتحال عنوان «البحث العلمي»؛ وتمييع مفاهيم لها وجاقتها الإستيمولوجية مثل «الدراسات القرآنية» و«التنوير» و«التجديد» و«المنهج النقدي»... إلخ. والذي يجعلني أخلص لهذه الخلاصة المريرة هو أن جُل ما يُنتج تحت هذه الشعارات في سياقنا لا يلتزم بالشرائط العلمية والمنهجية، ولا يتحلّى بالمسؤولية الفكرية في ما يطرح، حتى أنه يُلبس على الناس ويحجب عنهم الأعمال الجدية، العربية والغربية، التي تستحق عن جدارة تلك النعوت.

هكذا ظهرت تليسياً تتحل شعار البحث العلمي؛ فهذا يريد أن يجد أصلاً سريانياً للغة القرآن الكريم، وهذا يريد أن يرد هذه اللغة إلى جذور يونانية، وثالث يرى أن الكتاب هو استعادة لمكتوبات ومرويات سابقة، ورابع يتحدث عن «قرآناً»؛ وآخر يتحدث عن قرآن متأخر عن زمن الرسول تشكل بعد أكثر من قرنين من وفاته.... وحين تواجههم ببعض الأسئلة المحرجة والطروح النقيضة يرفعون في وجهك تمييزاً لا علمياً بين المقاربة الإيمانية والمقاربة العلمية؛ في إنكار لا علمي أن جُل

الأسئلة الجريئة على القرآن الكريم، والتي يتفاخرون بطرقها، قد طرحها المؤمنون قبل غيرهم، بل وطرحوها بدافع هذا الإيمان لفهم كتابهم الإلهي الخاتم. لكن قراءة القرآن الكريم بعيون النقد الكتابي في أوروبا، بل واستحضار ريادة اسبينوزا في الأمر دون الانتباه إلى الأثر الإسلامي الأندلسي في الأفق السبينوزي مما كان قد سطره ابن حزم وغيره...، وعدم التزام الموضوعية في الاقتراب من تاريخ النص وبنيته وامتداداته في الفكر والأدب والحضارة، وعدم النظر التاريخي النقدي في المنهج التاريخي النقدي نفسه، وعدم التحرر من الرؤية الحداثية الإقصائية المسبقة للدين وأفقه...؛ كل ذلك جعل القرآن الكريم يُقدّم لمشركة النقض باسم القراءة التاريخية النقدية؛ في تغاضٍ غير بريء عن خصوصية هذا النص اللغوية والروحية والمعرفية والتاريخية والجمالية والحضارية.

ويؤسف للغاية تقصير المسلمين اليوم في المواجهة العلمية لهذه «الحملة»، وركونهم الكسول والانفعالي للضحيج ورفع الصوت واللّعن والإخراج من الملة والاكتفاء بالطعن في النوايا... مما يزيد تلك «الحملة» انتشاراً ووهماً مصداقية.

على أن أول ما تقتضيه المواجهة المطلوبة لهذه التحديات المطروحة على كتاب المسلمين المقدس، في نظري المتواضع، هو إصلاحٌ مستعجل علمي ومنهجي لمؤسّساتنا الأكاديمية؛ بل أقول ثورة علمية ومنهجية في شُعب الدراسات الإسلامية في كليّاتنا لإقدارها على تفكيك خطاب «الحملة» التشكيكية اللاعلمية في القرآن الكريم. إنه الضعف الذي تستغله «الحملة» المذكورة لنشر نقوضها وأوهامها ومغالطاتها. وإنني هنا أستحضر خطة الطريق الرفيعة التي كان قد طرحها د. أحمد التوفيق، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربي، في واحدة من ألمع محاضراته في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: «الدراسات الإسلامية: إلى أين؟» (2021/12/15م) والتي لقيت تصفيقا واثميناً طَلاً عقيمين، لتبقى دار الدراسات الإسلامية على حالها، ويبقى القرآن الكريم غريباً بين أهله، حبيسَ التلاوة المناسباتية والعناية الطقوسية، يواجه في عراء حملات تشكيك وتسفيه لا تمتُّ للعلم بصلة ولا بآصرة.

وفي هذا السياق، أشير اختصاراً إلى أن العناية بالقرآن الكريم وإخراجه من غربته يحتاجان منا إلى بذل استثنائي للإصغاء العلمي لخطابه، وتجديد امتلاك علوم

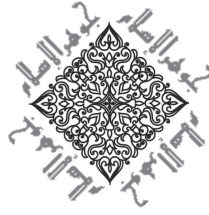
القرآن ومناقشة إجراءاتها المعرفية اليوم في ضوء التعامل النقدي مع الاستمولوجيا المعاصرة، وذلك لتجديد أدوات الاستمداد من الوحي القرآني هنا والآن؛ أي بما يجيب عن أسئلة المؤمن المعاصر بل والإنسان المعاصر؛ ذلك أن كثير من المغالطات التي يقع فيها المتحاملون على القرآن الكريم اليوم مصدرها إما عدم اطلاع كافٍ على علوم القرآن والمعارف التي نشأت من مصدره واستمداداً منه، وإما عدم قدرة على تنسيب عدد من خلاصات تلك العلوم لارتباطها بسياقات القراءة لا بقراءة النص المقروء؛ والذي يبقى مفتوحاً على آفاق لا متناهية للفهم والاستمداد وإنشاء المعارف واستخلاص «عجائبه التي لا تنقضي» كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

ولهذا، وبقدر ما يجب النأي عن تغليطات المتحاملين على القرآن الكريم وتحريفاتهم وتصحيفاتهم، بقدر ما يجب النأي عن المتجمدين على بعض معارف الأجداد؛ لكونها فهوماً بشرياً نسبية للنص أضفى تقادم الزمن على بعضها قداسة لا تمتلكها. ومن ثم، نحن إزاء خطرين في التعامل مع القرآن الكريم أفصيا إلى اغتراب حضوره بيننا هنا والآن: خطر المقاربة التاريخية التي تتحامل على النص الوحياني باسم التاريخ، فتقطع في جمعه وتدوينه وتناقله ونسخه، وتسجن معانيه وأحكامه وقيمه في سياق ظهوره التاريخي والثقافي بشبه الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد؛ وخطر المقاربة التقليدانية التي تجمد على حرف النص، أو على المعارف الموروثة التي تشكلت حول النص، مضافاً القداسة على تلك المعارف، ومماهية بين قراءتها للنص وبين وحيانيته؛ فيما تلك المعارف هي نتاج حوار عقل بشري نسبي مع النص المطلق الخالد. ومن حقوق هذا النص على مخاطبيه في كل زمان ومكان أن يحاوروه حسب أسئلتهم ومناهجهم وإخراجاتهم ومعارفهم، وتبعاً لإبستميتهم وسقف العقل في عصرهم المعرفي.

وهذا، في نظرنا، هو معنى التجديد الذي يشير إليه حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم القائل: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها». إن التجديد هنا لا يفيد القطعية مع منجز الأجداد، بل يفيد التجاوز بما هو أسمى صيغ الوفاء؛ ويعني التجاوز الاستيعاب النقدي أولاً (يقول أمين الخولي: يبدأ الجديد ببحثٍ عاصفٍ في القديم)، ثم الذهاب بذاك المنجز نحو أفق جديد يستبقي المفيد إجرائاً من ذاك المنجز ويتحرر من أسباب قصوره عن الإجابة عن الأسئلة المستجدة.

من هنا، ضرورة هذا التجديد اليوم في مواجهة الخطرين؛ لأن الخطر التاريخي يعدم الوحيَ بانتحال اسم البحث العلمي التاريخي وتوثيق صيرورة التاريخ، والخطر التقليدياني يعدم الوحي بانتحال القداسة وتوثيق الحرف والانسجان بمفهوم الماضي وإنكار صيرورة التاريخ.

بخلاف المنحيين، تكمن عظمة الوحي القرآني وفرادته لغةً وبلاغةً ومعرفةً وأحكاماً وقيماً وجمالاً وأفقا... في قدرته المعجزة والخلاقة على تخصيب جدلية الثابت والمتحول، التعالي والتاريخ، الغيب والشهادة، اللامتناهي والمتناهي، الخالد والبالد، المطلق والنسبي، الإلهي والبشري. وكل اقتراب من الوحي القرآني، الوديعة الإلهية الأخيرة في الإنسانية، لا يستوعب هذه الخصيصة القرآنية؛ سيظل مُهدداً بالوقوع في أحد الخطرين المذكورين؛ ذاك الخطر التاريخي الذي يشكل شعار المتحاملين على القرآن الكريم اليوم باسم صيرورة التاريخ؛ وذاك الخطر التقليدياني الذي يشكل شعار المدافعين عنه باسم قداسة جزء من التاريخ. وكلاهما يضع ما يميز وحيانية النص القرآني من جدلية خصيصة بين التعالي والتاريخ؛ والتي استطاع من خلالها أن ينزل في التاريخ ويراعي شروطه وحيثياته من كل الوجوه دون الانسجان به؛ وذلك بفضل ما امتلكه من خصائص لغوية وبلاغية ومعرفية وقيمية وروحية وجمالية.. أقدرته أن يكتب تاريخه الخاص الذي يحترم شرائط الصيرورة والنسبية دون أن يفقد قداسه وتعاليه العابرتين للأزمنة والأمكنة والعقول والقلوب؛ واللتين تخاطبان الإنسان كيفما ومتى ما وأينما كان. ودون إدراك هذه الحقيقة، ودون البذل العلمي لتجديد عقلنا المسلم اليوم وإقداره على تمييز هذه الخصيصة القرآنية هنا والآن، سيظل القرآن الكريم غريباً بيننا إلى حين.



مُفَاهِيمُ إِسْلَامِيَّةٌ

ضرورة تقوية الإحساس بشرف الانتماء للأمة وتاريخها لدى الأجيال الصاعدة

بقلم الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله

لا يستطيع أبداً أن أتصور مفهوم بر الآباء محصوراً في ذلك النوع من التلطف العاطفي والإحسان المادي الذي لا يتجاوز إشباع البطون وإكساء الأجسام لأن مثل هذا البر لا يتميز فيه الإنسان المكرم بالعقل عن كثير من أنواع الدواب الأخرى التي يحذب كبارها على صغارها وترتبط فروعها بأصولها وتحمي أقوياءها ضعافها بل البر الحقيقي للآباء يتمثل في أشياء أسمى وأعمق من هذا بكثير إذ هو لا يقتصر على أشخاص الوالدين وذواتهم، ولا يقف عند حدود تمتيعهم بمتع الحياة ماداموا أحياء وإنما يتجاوز كل ذلك إلى ولما اخلصوا له إذا كان ذلك لا يتنافى مع عقيدة صحيحة، أو مصلحة ملتزمة ويتجاوزه أيضاً إلى صلة الرحم التي لا توصل إلا بالآباء والأمهات وبالجملة فلا يتحقق مفهوم البرور إلا متى ارتبطت الفروع ببعضها واتصلت بأصولها القريبة والبعيدة اتصال الروح بالروح والعاطفة بالعاطفة والأهداف بالأهداف وبهذا يتحقق مفهوم التعارف بمعناه الواسع أو الضيق، التعارف الذي جعله القرآن غاية من غايات الخلق والتسلسل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وكأني بهذا التفضيل في الكرامة والذي يتوجه أول ما يتوجه هنا إلى ما ذكر قبله مباشرة فكان كالمتفرع عنه، وهو القضاء على الفوارق المصطنعة وتحقيق الاتصال الروحي والمادي الذي ينشأ عنه حتماً التعارف لا بالأسماء والنعوت بل بالمنافع والانسجام وهذا لعمرى هو التقى ذاته لأن مثل هذه الأشياء إنما تتحقق لدى أصحاب النفوس الطاهرة والعقول الرشيدة والأعمال السديدة وهؤلاء هم الأتقياء بحق وأنى يتسنى لمن يحاول أن يقصر وجوده

على ذاته، ومعرفته على ما يتصل بحياته القريبة وجهوده على منافع جسمه وحسب، أنى يتسنى لهذا ومن كان على شاكلته أن يقدر معنى التعارف أو أن يشعر بالحاجة إليه لأنه وإن ارتقت أفهامه ومداركه في أنواع من الفنون والعلوم الكثيرة ما يزال على جهل مطبق بمعان الاجتماع ومفاهيم الذات البشرية، وكم هم الذين يعلمون الكثير عن غيرهم ويجهلون كل شيء عن أنفسهم بل ويجهلون سر وجودهم؟ وذلك ما يجعلهم لا ينتفعون النفع الكامل بما تحصلوا عليه من علوم وفنون وكثيرا ما تكون علومهم وفنونهم سبب بلاء يعانونه وحدهم إن كانوا من أهل الانطواء والتهيب أو يعانيه الناس معهم إن كانوا من ذوي الجسارة.

إنني اعتقد انه لا سبب لهذه العقد النفسية ولهذا الشذوذ المقيت إلا ما ينشأ عليه بعض الأطفال في مرحلة الطفولة، وحتى في مرحلة الشباب من إنطوائية تجعلهم شيئا فشيئا يحسون بالغربة إن كانوا ضعاف الشخصية أو بالأنانية المفرطة إذا كانوا أقوياء النفوس والعقول وفي كلتا الحالتين ينشأ الأبناء أقل الناس تعلقا بمفاهيم الجماعة من قومية أو وطنية أو مذهبية وغيرها من الروابط ولو الأسرية والعائلية وتعظم هذه الظاهرة المنحرفة حتى تصل بأصحابها في بعض الحالات والظروف إلى نوع من الوجوم والسهوم كلما ضمهم مجلس مع أقاربهم وبني جلدتهم فلا يبرحهم سهومهم ووجومهم إلا إذا خرجوا من محيطاتهم إلى محيطات أخرى بعيدة عنهم وهكذا يتمادون شيئا فشيئا مع أوهامهم حتى تصل بهم في النهاية إلى نوع من التكر والاحتقار والكراهية.

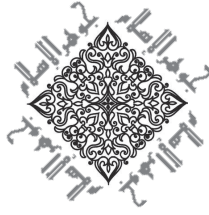
وليس هناك من دواء لهذه العلة التي أصبحت تكتسح العديد من أبنائنا إلا أن نعمق من إحساسهم بالبيئة والعائلة ونحكم الروابط التي تربطهم بالأمة والقبيلة والجنس ونحرص كل الحرص على جعلهم قبل الرشد لا يأخذون أبدا عن مقومات أمة أخرى أكثر مما يأخذون عن مقومات أمتهم من تربية وأدب ولغة وتاريخ وفن لأننا إن جعلناهم يشبعون نهمهم الأول من تراث أجنبي عنهم ومتناقض في اغلب الحالات مع تراثهم نكون كأننا انتقلنا بهم إلى وسط يبدل فطرتهم ويحول أفكارهم وأذواقهم تبديلا وتحويلا جذريين فيرون بحكم الجهل والانقطاع أن كل ما هو لآبائهم وجدودهم نقص وإن كل ما هو لمدارسهم التي تخرجوا منها كمال وفخر.

(أَبُكَ !!!)... رسالة إلى طفل غزاوي !

شعر : إبراهيم علي الربو - ليبيا

رَكَعْتَ لِقَارُونٍ مَعَ هَامَانٍ
وَعِطَاوُهَا قِطْعٌ مِنَ الْخِذْلَانِ
عُقِدَ اللِّسَانُ وَشَلَّتِ الْقَدَمَانِ
أَبُكَ رِبَاطَ الدِّمِّ وَالْإِيمَانِ
مِنْهُمْ أَنَاكَ الْيَوْمَ بِالْأَكْفَانِ
صَارُوا دُمًى فِي قَبْضَةِ الشَّيْطَانِ
فِي السَّمْعِ مِثْلَ شَوَاهِقِ الْحِيطَانِ
بِالدِّمِّ ، عَفَوْا مَا لَهُمْ عَيْنَانِ
وَاسْتَبَدَّلُوا التَّلْمُودَ بِالْقُرْآنِ
طِينٌ بِأَيْدِي جَلَالَةِ السُّلْطَانِ
وَمِنْ الْخِيَانَةِ مَنْ بِالْتِجَانِ
أَوْ خَادِمٌ لِعَدُوِّكَ مُتَّفَانِي
لَكِنَّهُ بِاللُّبِّ إِمْرِيكَانِي
وَارِسُ تَخَاذُلَهُ عَلَى الْحِيطَانِ
هَآ قَدْ أُبِيدُوا الْيَوْمَ كَالْفُئْرَانِ
تَحْتَ الرُّكَامِ وَسَامِقِ الْبُنْيَانِ
كَيْ يَقْتُلُوكَ وَمَا لَدَيْكَ يَدَانِ
وَكِلَاهُمَا فِي الْقَتْلِ مُشْتَرَكَانِ
وَسُيُوفُهُمْ بِزَعَامَةِ الشَّيْطَانِ
وَالْعَنَ عُرُوشَ الْعَارِ وَالْهُتَانِ
فِي كُلِّ حَرْفٍ لِلْجِهَادِ مَعَانِي
دَعْنَا هُنَا نَحْبُو مَعَ الدِّيدَانِ
فِي الْيَمِّ فَهِيَ عَلَامَةُ (الطُوفَانِ)

أَبُكَ فَإِنَّكَ مِنْ رَعَايَا أُمَّةٍ
فَقِرَاشُهَا فَوْقَ الْأَدِيمِ مَذَلَّةٌ
لَا صَوْتَ فِيهَا لَا حَرَكَ كَأَتَمَّا
أَبُكَ الْحَمِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ عِنْدَهَا
أَبُكَ ذَوِي الْقُرْبَى فَانْبُلُ فَارِسِ
أَبُكَ لَوْ حَدِّكَ وَانْتَحِبْ فَوَلَاتُنَا
أَبُكَ وَأَبُكَ ثُمَّ أَبُكَ إِنَّهُمْ
أَبُكَ فَهُمْ لَا لَمْ يَرُوكَ مُضَرَّجًا
أَبُكَ فَهُمْ يَا مُسْتَجِيرُ تَصْهَيْنَا
أَبُكَ فَهُمْ لَمْ يَنْصُرُوكَ لِأَتَمِّهِمْ
قَدْ وَشَحَ تِلْكَ الصَّدُورَ مَذَلَّةً
فَالْحَاكِمُ الْعَرَبِيُّ إِمَّا صَامِتٌ
الْأَسْمُ مِنَّا وَاللِّبَاسُ لِبَاسُنَا
أَبُكَ وَعَرَّ لِلْوَرَى سُوءَاتِهِ
أَبُكَ رِفَاقًا كُنْتَ تَمْرُحُ بَيْنَهُمْ
أَبُكَ بُنَيَّ أَبَا وَأُمَّا قَدْ قَضُوا
أَبُكَ فَأَيْدِي الظَّالِمِينَ تَصَافَرَتْ
ذَيْبٌ أَتَى يَبْكِي وَذَيْبٌ يَضْحَكُ
قَدْ حَاصَرْتُكَ سِهَامُهُمْ وَفُورُوسُكُمْ
إِيَّاكَ فَكُلَّ قُلُوبِنَا مَكْلُومَةٌ
وَانْقَشَ لَغْزَةً فِي الْقُلُوبِ حُرُوفُهَا
وَاصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الْكَرَامَةِ حَافِيًا
وَاجْمَعْ دُمُوعَكَ يَا بُنَيَّ وَأَلْقِهَا



من فوائد المحظرة : مسائل نحوية مفيدة

بقلم الاستاذ محمد بن سيد أحمد بن صلاح

نقيب الاشراف في موريتانيا

اليوم وكالعادة، أشارك معكم في إثراء هذا المنبر العلمي الذي ما فتئ ينشر العلم عبر هذه المجلة التي تحمل في طياتها الفوائد والشوارد، فكم استفدنا من تلك الأزهار الشذية والأنوار المحمدية.

وبما أن فوائد المحظرة متنوعة ومتعددة، اخترنا لكم مسائل نحوية مفيدة تتعلق بأحكام جمع المذكر السالم.

الجمع هو ما دل على أكثر من اثنين وأغنى عن المتعاطفين، وسمي هذا الجمع جمع السلامة لسلامة مفرد.

وذكر النحاة أن كل اسم اتصف بإحدى هذه الصفات يُجمع جمع المذكر السالم، وهي:

- 1 - أن يكون علماً لمذكر عاقل خالٍ من تاء التأنيث.
- 2 - أو صفةً لمذكر عاقل خالٍ من تاء التأنيث، ويشترط في الصفة قبول التاء بخلاف أحمر.
- 3 - أو مصغراً لمذكر عاقل خالٍ من تاء التأنيث.

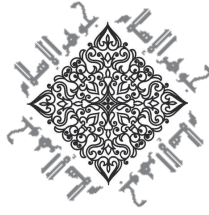
وقد نظم هذه المسائل علماً من علماء موريتانيا وهو المرابط محمد سالم بن ألما رحمه الله ، فقال:

مذكر وعاقِلٌ وخالٍ خرج بها تسعاً على التوالي هندٌ وما كشدقم وطلحةٌ وحائِضٌ وصاهلٌ وربعةٌ كذا حريبٌ وجميلٌ وزد عيينةٌ تمت بلا تردد فإذا تأملت هذه الأسماء الواردة في النظم، علمت أن كل واحد منها اختلت فيه القاعدة، فلا يمكن جمعها جمع المذكر السالم.

كذلك مما يُجمع جمع المذكر السالم باب سنين، وهو كل اسم ثلاثي حُذفت لامه وعُوِّض عنها هاء التأنيث، ولم يُكسر تكسيراً، يُعرب بالحركات كشفاه (مثال لما كُسِّر وأُعرب بالحركات).

مثاله: سنة، أصلها سنو، فحُذفت اللام، وعُوِّضت منها هاء التأنيث فصارت سنة. وقد نظم هذه المسائل أيضاً العلامة محمد سالم بن ألما رحمه الله، حيث قال: باب سنين حده الذ علما إن كنت قد نظرتَه يخرج ما كزيب وتمرة وعدة وكيد واسم وبت شفة لكثرة الحروف والاتمام والحذف أي للفاء لا للام وعدم التعويض أو تعويض ما لم يك هاء وكتكسير سما شذت إوزة أضاة ولده أب كذا ابن ظبة وواحدة لم تدخل الشذوذ وهي بنت ورتبن جميع ما بينت أذكر أن هذا النظم الأخير باللف والنشر المرتب.

ومن الأحكام المتعلقة بجمع المذكر السالم أنه لا تأتي معه التاء في الفعل، فنقول: جاء الزيدون، على خلاف نظمه أحدهم فقال: أبو علي الفارسي يقبل لديه جاء الفاطمات الفضل كذلك الكوفة يقبلونا ويقبلون جاءت الزيدونا وبقي علينا حكم النون في هذا الجمع، فحكمها هو الفتح، وقد وردت بالكسر، قال الشاعر: وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين وإلى فائدة أخرى من فوائد المحظرة أستودعكم الله .



المتوسل والمتبرك والمستغيث ليس بكافر عند أعلام مدارس المذاهب السنية الأربعة

بقلم الاستاذ أحمد العكرمي

معنى التوسل لغة واصطلاحاً

لغة: التوسل والوسيلة هو ما يتقرب به إلى الغير، توسلت إلى فلان بكتاب، أي تقربتُ به إليه.

قال ابن منظور في لسان العرب: «توسل إلى الله بوسيلة أي تقرب إليه بعمل ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا تقرب إليه، والوسيلة هي القربة والدرجة والمنزلة عند الملك».

اصطلاحاً: هو أن يقدم العبد إلى ربه شيئاً، ليكون وسيلة إلى الله تعالى لأن يتقبل دعاءه ويجيبه في ما دعا، وبذلك ينال مطلوبه.

مثلاً إذا تقرب إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العليا ومجده وقدسه وعظمه، ثم دعا بما يريد، فقد اتخذ أسماء وسيلة لاستجابة دعائه ونيل مطلوبه. أهم شيء في التوسل أنه على المتوسل التأكد من أن كل ما يقوم به من التوسلات يجب أن لا يتعارض مع أصل التوحيد وحرمة التشريع.

هل يوجد دليل من القرآن والسنة على التوسل؟

نعم فلو بحثنا في القرآن الكريم عن التوسل فسنجد أنه ذكره وبعده ألفاظ وإيكم بعضها:

- 1 - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة 35
- 2 - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ الإسراء 57
- 3 - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء 64
- 4 - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ * قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يوسف 97، 98.

في كتاب الرحيق المختوم:

أخرج ابن عساكر عن أبي عرفة، قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش، يا أبا طالب أقطط الوادي، وأجذب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام يعني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة قتماء، وحوله أغيلمه، فأخذ النبي أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولأذ إلى الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدودق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي، والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

هي أقسام التوسل؟

1 - التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته

أمر الله سبحانه عباده بدعائه بأسمائه الحسنى وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف/ 180).

2 - التوسل إليه بأفعاله سبحانه وتعالى ومنها القرآن الكريم

كتاب الله سبحانه وتعالى هو من أفعاله، والتوسل والسؤال به، هو توسل بفعله سبحانه وتعالى.

ومع ذلك يجب التحقق من وجود دليل على جواز هذا النوع من التوسل، لما عرفت أن كل ما يقوم به المسلم من التوسلات لا بد أن لا يخالف الشرع.

ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أنه يستحب في ليلة القدر أن يفتح القرآن فيقول: «اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر وأسمائك الحسنی وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار»

3 - التوسل بالأعمال الصالحة

لا شك في أن العمل الصالح أحسن شيء يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى، وأحسن وسيلة يتمسك بها فتكون نتيجة التقرب هي نزول رحمته عليه وإجابة دعائه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة/ 127 - 128).

هنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قدما إلى الله تبارك وتعالى وسيلة وهي بناء البيت، فعند ذلك طلبا من الله سبحانه عدة أمور: تقبل منا، واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا.

4 - التوسل بدعاء الأنبياء

إنّ للأنبياء مكانة مرموقة عند الله سبحانه وتعالى ليس لأحد مثلها، فهم أفضل الخلق، ودعائهم مستجاب. قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء/ 64).

أيضا نرى أن أبناء النبي يعقوب عليه السلام بعدما كُشف أمرهم وبأن ظلمهم توسلوا بدعاء أبيهم وقالوا له: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف/ 97 - 98).

5 - التوسل بدعاء المؤمنين

التوسل بدعاء المؤمن تمسك بالسبب الذي جعله الله سبحانه سبباً لاستجابة الدعاء، وقد دلت الآيات على أن الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، وأن المؤمنين اللاحقين يستغفرون للسابقين، وهذا يدل على أن دعاء المؤمن في حق أخيه، أمر مرغوب ومطلوب ومستجاب، فإذا كان كذلك فعلى المذنب أن يتوسل بهذا السبب المشروع ويطلب من أخيه الدعاء له، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ

حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿غافر / 7﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** (الحشر / 10).

فدعاء حملة العرش للمؤمنين سبب صالح لإجابة الدعاء، فعلى المسلم الواعي التمسك بمثل هذا السبب وطلب الدعاء منهم.

وهناك أقسام سنأتي على ذكرها ضمن الموضوع

إلى هنا لا يوجد فرق بين المسلمين ولكن ما يؤخذ على الشيعة هو توسلهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

• هل التوسل بهم جائز أم لا؟

• ألا يعد التوسل بهم شركاً بالله؟

• ما الفرق بين التوسل بأناس وبين التوسل بصنم؟

• لماذا نتوسل بأهل البيت عليهم السلام؟

• هل يختلف التوسل بين أن يكون من الحي أو الميت؟

• هل يصح أن نقول يا رسول الله أو يا علي أو يا فلان اقض حاجتي؟

نناقش هذه الإشكالات نقطة نقطة

• هل التوسل بهم جائز أم لا؟

التوسل بالأنبياء والأولياء جائز ليس عند الشيعة فقط وإنما حتى عند السنة وإليك

الدليل

من صحيح البخاري

3757 - حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْمُثَنَّى، عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ فَيُسْقَوْنَ.

فهنا عمر بن الخطاب يتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وعمه العباس .
ومن أقرب إلى الله تعالى العباس أم ابنته فاطمة وزوجها وأبناءها عليهم السلام
الذين طهرهم الله ؟!

ومن مسند أحمد

16604 - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمرَ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، قَالَ سَمِعْتُ عُمَارَةَ
بْنَ خُرَيْمَةَ، يُحَدِّثُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ رَجُلًا، ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي قَالَ إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ وَإِنْ شِئْتَ أَخَرْتُ ذَاكَ
فَهُوَ خَيْرٌ فَقَالَ ادْعُهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنُ وُضْوءَهُ فَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ وَيَدْعُو بِهِذَا الدُّعَاءَ
اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَاتَّوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ
إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِي لِي اللَّهُمَّ شَفْعَهُ فِيَّ.

• ألا يعد التوسل بهم شركا بالله ؟

بعد أن عرفنا معنى التوسل وهو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وأفعاله
وبأعمالنا الصالحة وأمور قريبة منه لكي يستجيب دعاءنا وبعد أن وجدنا الأدلة من
القرآن والسنة عليها لا مجال لنا إلا أن نؤمن بأن التوسل جائز. ومن أقرب إلى الله من
النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام ليتقرب بهم ؟

• ما الفرق بين التوسل بأناس وبين التوسل بصنم ؟

لو لاحظنا الآية التي تتكلم عن المشركين وأنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا إلى الله
بها فسنعرف السر

قال تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الزمر 3

فالفرق هو أن المشركين يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله أما المتوسلون
بالصالحين فهم يعبدون الله ويتوسلون إليه بما يحبه وبما هو قريب منه.

• لماذا نتوسل بأهل البيت عليهم السلام ؟

إن الله تعالى قال: ادعوني أستجب لكم. وهذا يعني أن العبد لابد أن ينقطع إلى
الله تعالى في طلب كل شيء لافتقاره لكل شيء، فهو المحتاج إلى الله والفقير إليه،
والله تعالى هو الغني عن عباده.

إلا أن ذلك لا يمنع من أن نجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وسيلة إلى الله تعالى، فكما أمرنا بدعائه فقد أمرنا بابتغاء الوسيلة إليه حيث قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

ولا شك أن من الأسباب التي تمنع استجابة الدعاء هي قلة الطاعة وكثرة الذنوب، إلا أن توسطهم وشفاعتهم وقرب منزلتهم عليهم السلام من الله تعالى يقتضي منه أن يستجيب دعاءنا كرامة لهم، كما إنك لو سألت أحدا حاجة وتعلم أن قضاءها يكون بتوسط أحد مقربيه فان العقل يدعوك إلى أن تسأل هذا المقرب بحاجتك وأن تتوسط بحقه وبمنزلته في قضاء حاجتك، فلا فرق في ذلك، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام لكرامتهم عند الله يستجيب الله تعالى لنا ويقضي حوائجنا بحقهم عنده.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأئمة من ولد الحسين من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، هم العروة الوثقى وهم الوسيلة إلى الله تعالى». فنحن ندعو الله بهم وبألستهم لأنهم لم يعصوا الله سبحانه وتعالى فبذلك نكون دعونا الله بألسنة طاهرة فيكون الدعاء أقرب للإجابة.

• هل يختلف التوسل بين أن يكون من الحي أو الميت؟

التوسل على قسمين:

- (1) تارة نطلب من الله بحق نبي أو إمام أو عبد صالح أن يقضي حوائجنا.
- (2) وتارة نطلب من النبي والوصي والعبد الصالح أن يطلب من الله قضاء الحوائج.

قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64].

وقال تعالى حكاية عن أولاد يعقوب: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * [يوسف: 97-98].

وربما يقول قائل: إن هذا جائز في حال الحياة، أما بعد الممات فلا، لكونه شركاً بالله تعالى.

فيقال: إن الشيء لا ينقلب عما هو عليه، وإذا كان جائزاً فلا فرق سواء كان في حياته أو بعد مماته، إذ أن النبي أتاه الله الدرجة الرفيعة، وهو الوسيلة إلى الله في الدنيا

والآخرة، فلا بدع لو توسل به المؤمن في كل يوم وقال: يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله .

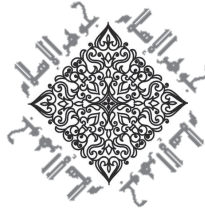
ونحن نعلم أن النبي والأئمة شهداء عند الله سبحانه وتعالى والشهيد حي ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران 169

فالنبي وآله عليهم السلام أحياء وليسوا أموات ونحن ندعو الله بأرواحهم وكما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام).

• هل يصح أن نقول يا رسول الله أو يا علي أو يا فلان أقضي حاجتي؟
السؤال المباشر بصيغة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو أي ولي آخر لقضاء الحاجة، كأن تقول يا محمد أقضي حاجتي، أو يا علي أشف ولدي أو ما شابه، هذا السؤال يسميه أهل البلاغة بالمجاز في الإسناد!!!
فانتبه يرحمك الله تعالى!!!

لأن الناطقين بهذه الكلمات أناس موحدون يعتقدون بالله الواحد الأحد، وأنه الخالق الرازق والنافع الضار، وإنما الأنبياء والصالحون عباد مكرمون يتوسل بهم إلى الله سبحانه وتعالى في قضاء حوائجهم.
وكان لسان الحال حين يقول: يا علي أشف ولدي، يريد: يا علي بجاهك عند الله أسأل الله تعالى أن يشفي ولدي.

والمجاز في الإسناد وارد في لغة العرب، وكذلك وارد في الكتاب والسنة، فلا محذور من استعماله وتداوله بعد ثبوت العقيدة والإيمان بالله الواحد الأحد النافع الضار. فيكون قول القائل: يا علي ارزقني، أو يا رسول الله اشفني.. مجازاً في الإسناد.



خطبة الجمعة

التحذير من الكذب

الحمد لله سائر العيب قابل التوب شديد العقاب جامع الناس ليوم الحساب وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ذي الخلق العظيم الصادق الأمين الهادي إلى سواء السبيل والصراط المستقيم صلى الله عليه وعلى آل بيته الأطهار وصحابته الأبرار ما تعاقب الليل والنهار صلاة وسلاما ترضى بهما عنا وتدخلنا بهما الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد أيها المسلمون فأوصيكم وأوصي نفسي بتقوى الله في السر والعلن وفي القول والفعل وفي المنشط والمكره فإنها خير زاد يتزود به عباد الله الصالحين

خطبة هذا الأسبوع في التنبيه والتحذير من معصية من أعظم المعاصي وكبيرة من أعظم الكبائر يحسبها الغافلون هينة وهي عند الله عظيمة ألا وهي كبيرة الكذب والافتراء بالباطل. والكذب من أعمال اللسان، والله تبارك وتعالى يحاسب عباده عن الأقوال مثلما يحاسبهم على الأعمال، والكلام منه ما هو طيب يجازي الله عليه عباده أعظم الجزاء فكذلك هناك الكلام الخبيث وكثيرا ما يستهين الناس بما تنطق به السستهم متغافلين عما حذر منه الله عباده من لغو الكلام ونبه إلى مخاطره رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قال بلال بن الحارث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ويكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة) حديث حسن

فمثلما أن لليدين وللرجلين وللأذنين وللعينين أعمال يحاسب عليها صاحبها فكذلك للسان عمل يحاسب عليه صاحبه، بل لعل عمل اللسان وما ينطق به أعظم خطرا إذا لم يراقب فيه صاحبه الله

وصدق الحكيم القائل:

وان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها كلام

والإسلام هو نواه وأوامر وتكون البداية بالانتهاء عمّا نهى الله عنه من الأقوال والأفعال وسائر التصرفات التي تغضب الله ثم بعد ذلك يكفيه من العمل الصالح القليل، هذا هو المسلك القويم السليم وإلى ذلك أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال (نهيتكم عن أشياء انتهوا عنها جميعاً وأمرتكم بأشياء فاتوا منها ما استطعتم) ولذلك قال أحد الصحابة رضي الله عنه (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه). فمعرفة الشر لاجتناب الوقوع فيه هو عين الحكمة والصواب ولذلك قال الحكيم.

عرفت الشر لا للشر ومن لم يعرف الشر يقع فيه

ومن أعظم الشرور ومن أكبر الكبائر الافتراء بالباطل على عباد الله بالكذب وبثّ الإشاعات التي لا أساس لها من الصحة ولو كان ذلك على سبيل المزح ومن قبيل التقليد الأعمى كما اعتاد على ذلك الكثير متصورين أن أقلام كتاب السيئات ترفع يوم أول إبريل فيمكنهم أن يفتروا بالباطل ويلغوا في أعراض الناس متسبين لهم في مشكلات وحتى الإزمات الصحية، وهذا لعمرى ظلم وعدوان ما أنزل الله به من سلطان.

فالمسلم المتخلق بأخلاق الإسلام المسترشد بسيد الأنام عليه الصلاة والسلام ذي الخلق العظيم والملقب قبل بعثته بالصادق الأمين يشهد له بذلك حتى من كفر بما جاء به من عند الله . فالمسلم المتخلق بأخلاق الإسلام عليه أن يتروى ويتثبت قبل أن ينطق لسانه خشية على نفسه من أن يصيب قوماً بجهالة فيصبح على ما فعله من كذب وبهتان وافتراء نادماً، ولكن ولات ساعة مندم اللسان عباد الله ثعبان يلدغ من لا يراقب الله في كلامه.

لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على من استهان بما ينطق به اللسان وقال له (ثكلتك أمك وهل يكبّ الناس في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم) حصائد اللسان من كذب وغيبة ونميمة وسبّ وشتم وسخرية واستهزاء كل ذلك حرام في دين الإسلام محبط للأعمال يأكل الحسنات كما تأتي النار على الحطب اليابس وفي الحديث الشريف يقول عليه الصلاة والسلام (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) فالصمت عما يغضب الله عبادة وقربة ويألفها من عبادة (ومن قل كلامه قلت عثراته وزلاته)، وليس من خلق المسلم اللغو والثرثرة.

إن عمل اللسان يفسد أعمال بقية الأعضاء إذا كان هذا العمل من قبيل الكذب والافتراء والأيمان الفاجرة أن الصيام وهو عبادة شاقة يفسده ويضيع أجره وثوابه

العظيم قول الزور والعمل به يقول عليه الصلاة والسلام (من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله في تركه طعامه وشرابه)

فانظروا عباد الله المسلمين إلى أي مدى يصل خطر ما تنطق به السنتنا مما نستهيّن به فالكذب من اقبح الذنوب وافحش العيوب اورد ابن ماجة والنسائي في سننهما قال اسماعيل ابن واسط سمعت ابا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال (ياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار) وفي حديث آخر قال (ان الكذب باب من ابواب النفاق)

وقد يستهيّن الواحد بالكذبة فتتلوها كذبة ثم كذبة إلى أن يصبح الكذب عادة والعياذ بالله، قال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)، وتحذيرا ووعيدا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب والبهتان قال (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشرار بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال (ألا وقول الزور) وما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول (ألا وقول الزور) إلا للتنبيه على أن الكذب كبيرة من اكبر الكبائر وفي حديث آخر عدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب من علامات النفاق، والمنافقون في الدرك الاسفل من النار (قال: ثلاث من كن فيه كان منافقا إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) ومن كانت فيه خصلة من هذه الخصال كانت فيه خصلة من خصال المنافقين والعياذ بالله.

وعن عبد الله بن جرّاد قال (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يزني المؤمن؟ قال قد يكون ذلك: يا نبي الله هل يكذب المؤمن قال: لا ثم اتبعها بقول الله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) ومن دعائه عليه الصلاة والسلام (اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجي من الزنا ولساني من الكذب) ومن الثلاثة الذين يشنّوهم الله التاجر أو البياع الحلاف والفقير المختال والبخيل المنان وقال عليه الصلاة والسلام (ويل للذي يحدث ليضحك به القوم ويل له ويل له) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن التجار هم الفجار فقليل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع قال: نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون) والله تبارك وتعالى نهانا على أن نجعل الله عرضة لأيماننا، واليمين الغموس يهوي بقائله في نار جهنم نسأل الله السلامة والعافية وان نكون في بيعنا وشرائنا وسائر معاملتنا نتوخى الصدق والامانة إذا (التاجر الصدوق الأمين في الجنة) كما اخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

والصدق في القول والاخلاص في العمل واتقانه كانت ميزة وخلق أسلافنا رضي الله عنهم فرضي الله عنهم وارضاهم وبارك لهم فيما اعطاهم ووهبهم، وكانت سيرتهم تلك دعوة عملية للإسلام وسببا في اعتناق من خالطوهم وتعاملوا معهم من الشعوب والامم، إذ الدين الحق الدين الصحيح إنما يظهر في المعاملة من صدق وأمانة وعفاف وفضل وخيرية هذا هو الدين.

اين منه المسلمون اليوم؟ لقد غدا المسلمون اليوم (إلا من رحم ربك) مثالا للكذب والبهتان والخيانة واخلاف المواعيد وصدق من قال امران في أمتي قد خيبا أُملي الصدق في القول والاخلاص في العمل شعارات ترفع تخالفها الاقوال والافعال وسائر التصرفات حتى اصبح العربي في موعده مثلا في الخلاف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ينشأ الاطفال منذ نعومة أظفارهم على ذلك فيامر الاب ابنه بأن يعلم من يسأل عنه بأنه غير موجود والحال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتبر الام مدرسة فهي المدرسة الاولى للصدق والامانة أو الكذب والخيانة لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الام التي تعد ابنها باعطائه شيئا ثم لا تعطيه له

اين نحن عباد الله المسلمين من أخلاق الإسلام وهدي سيد الأنام عليه الصلاة والسلام القائل (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)؟ وعماد الاخلاق الصدق في القول والحفاظ على الامانة. ألسنا نعيش في أزمة أخلاقية ولا نعترف بذلك؟ ألا يحتاج ذلك منا إلى وقفة ومصارحة ومراجعة لتساءل أين الخلل؟ لماذا لا نرى لما نتلوه في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام أثرا يذكر في معاملتنا في اقوالنا وما تنطق به الستتنا وما تردده من كلام الكثير منه من قبيل الباطل؟ ألا نخشى الله؟ ألا نخشى من شديد عقابه وعذابه؟

فلنحذر عباد الله من احباط اعمالنا ولنجنب كل ما حرم الله علينا من اقوال وافعال فانه بعد ذلك يكفيننا أداء الفرائض والقليل من العمل الصالح فالصدق الصدق عباد الله (فان العبد لا يزال يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا) فعن انس رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم (تقبلوا الي بست أتعبل لكم بالجنة فقالوا: ما هن؟ قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم)

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ولوالدي ولوالديكم انه هو الغفور الرحيم

خطبة الجمعة بجامع البحيرة 1

ألقاها الشيخ محمد صلاح الدين المستاوي



لماذا الحيفُ العريض والاستنقاص بحقّ اثنين من كبار مفكرّي عصرنا الحديث

بقلم : صالح العود / فرنسا

باحث وكاتب خمسين عاما

في هذا المقال، أريد أن أُشير وأسلط الضوء على اثنين من كبار وأشهر مفكرينا في عصرنا، ممّن هُضم حقهما، وظلموهما وحرّموهما من استحقاقات كانوا جديرين بها، بل هي من حظوظهم بامتياز وبكل شموخ، ولكن أصحاب القرار فوتوها عليهم، ومنعوهما منها.. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

والحقيقة التي لا شك فيها، أن الذي أعنيهم بما جرى لهم في الوطن العربي أو العالم الإسلامي، كثر، قد لا أحصيهم هنا، ولكني، اخترت اثنين من عمالقة الفكر والكتابة، ومن بلاد مصر تحديدا، وهما أنور الجندي (ت. 2001 م)؛ وأحمد باكثير (ت. 1969 م) رحمهما الله.

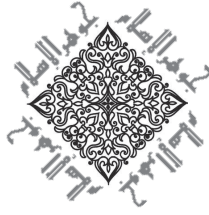
الأول : الأستاذ أنور الجندي :

حدث عما أصابه من ضيق المهنة، وغمط المكانة، التي هو أهل: جاره الكاتب التحرير د. حلمي القاعود فقال عنه ما نصه: «مُنِع من نشر كتبه» ومقالاته، في دور النشر الرسمية، وحُرِم من حوافز العمل، والاستضافة في الإعلام الرسمي».

أما (الثاني) فهو علي أحمد باكثير صاحب موسوعة كتاب (ملحمة عمر)، تقع في تسعة عشر جزءا. كانت آخر وظائفه في (مصلحة الفنون بوزارة الثقافة)، إذ كان يشغل: (مديرا للرقابة على المصنفات الأدبية)، ثم أُحيل على التقاعد الإلزامي بغير مبرر، فلما لزم بيته مُراعِمًا ومُكرّها، عكف مع القلم بقيّة حياته، ففتح عليه ما شاء الله له من غزارة التحرير وبركة التأليف، الخير الكثير، وكان يتمثل بقوله في مثل حاله بعد أن صار إليه: «لقد ذبحوني». وأسرّ إلى صديقه الشاعر عبده بدوي قائلا: «لأن أكون راعي غنم في حضرموت، خير لي من هذا الصمت المُميت في القاهرة».

ثم جاءه منصب رفيع للتدريس (قسم الدراسات الشرقية) بجامعة كامبردج في لندن؛ وثنان من القسم الأدبي بهيئة الإذاعة البريطانية.

«لكن المنية سبقت ذلك، فرحل إلى الدار الآخرة، إثر نوبة قلبية حادة في 10/11/1969 م، تاركا من فكره وقلمه ما يزيد عن سبعين كتابا مطبوعا، فضلا عن خمسة عشر كتابا مخطوطا. رحمه الله وأثابه.»



في الراحلين إلى دار البقاء: 1 - الدكتور أحمد طالب الابراهيمي رحمه الله

(5 جانفي 1932 - 5 أكتوبر 2025)

من صفوة من أبناء الجزائر احبوا تونس ومثلوا الأصاله والمعاصرة

رحم الله هذا الرجل الذي غادرنا إلى دار البقاء بعد عمر مديد كان فيه مثالا للأصاله والمعاصرة ومثالا للجمع بين حب الوطن والإيمان ، وكيف لا وهو نجل العلامة الشيخ البشير الابراهيمي خليفة الامام عبد الحميد بن باديس في رئاسة جمعية العلماء الجزائريين رحمهما الله الذراع التعليمي للزيتونة في شمال افريقيا وما وراءها من بلاد الغرب الإسلامي.

فكان أحمد طالب النجيب في الطب والمناضل في سن مبكرة في صفوف جبهة التحرير الوطني وكان لسان حالها في الاوساط العلمية والفكرية في فرنسا والمدافع عن حقها في تحريرها من ربة الاستعمار الغاشم مما جعله ينال حظه من الزج به في السجون التي لم تمنعه من أن يظل من داخلها مدافعا عن قضية شعبه (تشهد على ذلك رسائله التي تولت نشرها الدار التونسية النشر في ستينات القرن الماضي)

ولئن تخرج طبيبا الا انه ما لبث أن شق طريقه في تحمل ارفع المسؤوليات التي اعتبرها الاقرب إلى ما اكتسبه من خبرة وتحربة في الميدان الذي تحتاجه بلاده بعد احرازها على استقلالها فقد تولى وزارة التربية والتعليم الذي ترك فيه بصمته ثم انتقل إلى وزارة الإعلام والثقافة ليتوج مسيرته في العمل الحكومي بوزارة الخارجية

وهي مسؤوليات رفيعة خدم بها الجزائر بجد وخبرة ووطنية واصالة ومواقف مشرفة في الدفاع عن الحقوق المشروعة والقضايا العادلة وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

لم ينقطع احمد طالب الابراهيمى رحمه الله عن العطاء إلى اخريات حياته يدلي برايه ناصحا وموجها ومصلحا لذات البين في سبيل ان يحول بين بلاده وشعبه وما يدبر لها من دخول في فتنه تأتي على الاخضر واليابس مما ضحى في سبيله الشعب الجزائري بالملايين من الشهداء الابرار.

كان احمد طالب الابراهيمى صوت الاعتدال وجمع الكلمة اصلاح ذات البين مما جعله يحظى باحترام وتقدير الجميع الذين يشهدون له بالفضل والنزاهة.

تفرغ احمد طالب الابراهيمى رحمه الله للتأليف فترك ارثا غنيا متنوعا سيظل معينا عذبا لا ينضب تتغذى منه اجيال الجزائر المتعاقبة.

والتفت إلى ماتركه والده العلامة محمد البشير الابراهيمى رحمه الله فجمعه وحققه واخرجه وتولت دار الغرب الإسلامى نشره وتعميم الافادة به وهو بذلك يبرهن انه ابن ابيه ووارث نهجه وهو ما تميز به رحمه الله فضلا على انه عين بر الابن بأبيه وذلك لا يستغرب منه.

عرفت الرجل رحمه الله وان لم يكتب لي الله (وانا اعترف بتقصيري) ان اجتمع به الا في بعض استراحات جلسات ملتقى الفكر الإسلامى التي كنت احضرها وكان الفقيه كلما سمحت له ظروف عمله يحضر جانبا منها فكان يقبل علي بلطفه المعهود وحبه الشديد لتونس وشعبها وشيوخها زملاء وأصدقاء والده وكان يعبر عن اعجابه بمجلة جوهر الإسلام وبالشيوخ الوالد رحمه الله وبدوره في خدمة الثقافة العربية الإسلامية.

كنت امني النفس بلقاء الرجل من قرب واستفيد من تجربته وحكمته وما حصل له فيها مما تحتاج إليه الأمة خصوصا في هذه المرحلة الصعبة والدقيقة التي تمر بها والتي هي في امس الحاجة إلى امثال احمد طالب الابراهيمى رحمه الله من الرجال البررة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه والذين بينهم وبين اخوتهم في تونس وشائج قرى واخوة كان لتونس الزيتونة الدور الإيجابي في تمثيلها وتقويتها .

رحم الله الدكتور احمد طالب الابراهيمى رحمة واسعة واسكنه فسيح جنانه ورزق أسرته والشعب الجزائري الشقيق واخوتهم من أصدقائه من الرعيل الأول من

المناضلين وبناء الدولتين في الجزائر وتونس جميل الصبر والسلوان وانا لله وانا إليه راجعون

اجتماع في مصر في الحزن على رحيل الدكتور احمد عمر هاشم 5 فيفري - 1941 17 أكتوبر 2025)

نعى الناعي من العاصمة المصرية القاهرة نبأ وفاة الأستاذ الكبير احمد عمر هاشم عضو هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف ورئيس جامعة الأزهر سابقا رحمه الله واسكنه فراديس جنانه

نزل الخبر كالصاعقة على قلوب من عرفوه ومن احبوه وما اكثرهم على امتداد العالمين العربي والإسلامي

ابن الأزهر البار منه تخرج أستاذ في السنة والحديث وتدرج في سلم الخطط العلمية ليتبوا اعلاها رئيسا لجامعة الأزهر بكلياتها في مختلف الاختصاصات واسرة التعليم التي تعد بالآلاف وفروعها داخل مصر وخارجها

تولى إلى جانب رئاسة الجامعة عضوية هيئات الأزهر كهيئة كبار العلماء ومجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية والمجلس الأعلى للطرق الصوفية ونقابة الاشراف بالإضافة إلى عضويته لعديد الهيئات الإسلامية على امتداد العالمين العربي والإسلامي

كان للدكتور احمد عمر هاشم رحمه الله حضور مكثف في الكثير من المؤتمرات واللقاءات طيلة السنوات الماضية وكان له فيها الحضور المتميز الذي يلفت إليه الأنظار وكان الضيف لعديد الحصص الدينية في وسائل الاعلام المرئية والمسموعة ولم يغب عن صفحات المجلات الإسلامية (الأزهر ومنبر الإسلام والتصوف الإسلامي واللواء الإسلامي)

وكان الدكتور احمد عمر هاشم رحمه الله نجم الاحتفالات بالمناسبات الدينية بالخصوص ذكرى المولد النبوي كل عام من خلال كلماته المؤثرة التابعة من اعماق قلبه والتي يضيف إليها روائع ما حفظه من اشعار المادحين للحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام قديما وحديثا ومنها ما هو من صياغته في امداح رسول الله صلى الله عليه وسلم من اروع ما جادت به قريحته

ينحدر الدكتور احمد عمر هاشم رحمه الله من أصول شريفة من ال هاشم عليهم الرحمة والرضوان الذين أوصى ان يدفن بجوار هم بكت مصر بصفة خاصة بكل فئاتها واجيالها وقياداتها العلمية والدينية والرسمية وبكى معها كل العالم العربي والإسلامي الدكتور احمد عمر هاشم رحمه الله حزن الجميع لفراقه برحيله إلى دار البقاء تاركا حسرة على من ظل طيلة حياته يعطي بتفان مستهينا بالأمراض وتقدم السن يعطي عطاء من لا يخاف من ذي الفضل اقلا لا

* لم يهن ولم يسكت في دفاعه عن ثوابت الأمة في إسلامها ومقدساتها وبلادها المقدسة فلسطين وما تعرضت له من عدوان وحشي من طرف الصهاينة واخرها ما جرى في غزة طيلة عامين على مرأى ومسمع من الجميع ومن فوق منبر الازهر علّا صوته صارخا في الأمة بان تهب لنجدة ونصرة إخوتها المرابطين في الأرض المباركة مؤديا دوره ومبراً ذمته امام ربه

* لم تشغل كل هذه الواجهات الدكتور احمد عمر هاشم رحمه الله عن العطاء العلمي من خلال ما خطه قلمه في كل المواضيع التي تشغل المسلم في هذا الزمان اضافة إلى عنايته بمجال اختصاصه: السنة النبوية والحديث الشريف فقد ترك في هذا المجال عديد التأليف منها شرحه لصحيح البخاري وغيره في كل ما يخص المصدر الثاني الشريعة الإسلامية

* لقيت الدكتور احمد عمر هاشم في مصر وخارجها ورايت في الرجل إشراقة الموصول بالله الذي يجري منه مجرى الدم من العروق حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وال بيته الاطهار من اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

* وجدت نفسي منجذبا إليه انجذابا شديدا وبادلني رحمه الله هذا الانجذاب ولي مع الرجل رحمه الله ذكريات لا تمحى جعلتني اعيش بالروح أجواء ما شاهدته من تاثر صادق وحزن شديد في الصلاة عليه في جامع الازهر التي شهداها كل اركان الازهر وشيوخه وعلى راس الجميع الامام الأكبر فضيلة الشيخ الدكتور احمد الطيب الذي نعاه في بيان مثلما نعته وزارة الأوقاف ومشیخة الطرق الصوفية ونقابة الاشراف وهيئات رسمية وشعبية إسلامية وقبطية فضلا عن رئاسة الجمهورية التي اولته في اخر ايام حياته التكريم الذي يستحقه.

* لقد كانت جنازة الدكتور احمد عمر هاشم رحمه الله جنازة مهية عظيمة كثيفة في حضورها الشعبي الكبير والرسمي من المسؤولين السابقين والقائمين في اجماع على حب الفقيد والحزن الشديد على رحيله.

انه الا جماع على حبه والاحترام الذي يستحقه رحمه الله واجزل مثوبته واسكنه فسيح جناته بجوار من نشر بين الناس محبة حبيبه وقره عينه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

3 - الدكتور عبد الله عمر نصيف رحمه الله (يوليو 1939 - 2025) الامين لرابطة العالم الإسلامي الذي ربطته علاقات أخوة وود مع تونس وعلمائها

هل كتب علينا ان نعى للأمة كل يوم احد اعلامها الذين حملوا راية الإسلام في العقود القريية الماضية، يرحلون الواحد تلو الآخر تاركين حسرة على فراقهم ولوعة في قلوب من عرفوا فضلهم وما اسدوه للامة ودينها من جليل الاعمال في الظروف التي مرت بها هي من اصعبها وادقها عبر تاريخها المديد

ذلك هو الشعور الذي يعتريني في كل مرة ينعى فيها نعي احد هؤلاء الرجال البررة والنعي هذه المرة جاء من الحجاز ارض الحرمين الشريفين انه خبر وفاة الدكتور عبد الله عمر نصيف رحمه الله الذي عرفت مسيرة حياته العديد من المحطات البارزة والتي ترك فيها احسن الأثر.

الدكتور عبدالله عمر نصيف رحمه الله ينحدر من احدى الاسر الحجازية العريقة نشا في احضانها وتدرج في سلم الترقى العلمي إلى ان بلغ اعلى درجاته وتولى اعلى رتبة رئيسا لجامعة الملك عبد العزيز في جدة ونائبا لرئيس مجلس الشورى وامينا عاما لرابطة العالم الإسلامي.

وكانت له رحمه الله اهتمامات اجتماعية وشبابية كشفية اصبح بها رئيسا للاتحاد العالمي للكشافة الإسلامية.

واختير أمينا عاما لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة واصبح بذلك رئيسا لاجهزتها العديدة مثل مجمع الفقه الإسلامي التابع للرابطة والمجلس العالمي للمساجد وغيرهما من اجهزة الرابطة العديدة.

وقد شهدت الرابطة في عهده نقلة نوعية وتطورا في وسائل عملها لتشمل الكثير من الميادين التعليمية والاعلامية والثقافية

وارتبط الدكتور عبد الله عمر نصيف رحمه الله بعلاقات واسعة مع العاملين في الحقل الإسلامى على امتداد العالمين العربى والإسلامى

وربطته بتونس وعلمائها علاقات صداقة وتعاون نذكر من هؤلاء فضيلة شيخ الجماعة سيدي محمد الشاذلى النيفر رحمه الله الذي كان في تلك الفترة عضوا يمثل تونس في المجلس التأسيسي للرابطة والمجمع الفقهي كما ربطته صلة وثيقة بفضيلة الشيخ محمد الحبيب بلخوجة رحمه الله الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامى الدولى بجدة وكان لهما تعاون في هذا المجال (أثمر تكاملا بين المجمعين)

وتردد الدكتور عبد الله عمر نصيف رحمه الله على تونس والتقى بشيوخها وعلمائها وكبار مسؤوليها

وكان لي شرف التعرف عليه حيث جمعتنا لقاءات متعددة في مكة المكرمة وفي تونس كلما جاءها وكنا نطمح ان تفتح الرابطة مكتبا لها في تونس تساهم من خلاله في خدمة الأمة ودينها وتتكامل بينهما فيه الجهود في خدمة الإسلام وبالخصوص في المجال التعليمي من خلال الكلية الزيتونية ثم جامعة الزيتونة بارساء تعاون ثلاثي فتقدم الرابطة المنح الدراسية للطلبة الأفارقة

كانت طموحاتنا في هذا المجال كبيرة ولكن حالت دونها عوامل طرأت في الاثناء وكنا نأمل في ضبط خطة لتطوير المدارس العربية الإسلامية في بلدان غرب أفريقيا التي تخرج الآلاف من الطلبة الذين ظلت افاق الاستفادة منهم ضئيلة جدا

وكان هذا العمل الذي كنا نود القيام به معا خدمة لآبناء تلك المنطقة من البلدان الافريقية جاء ثمرة تشريفي من طرفه شخصيا بالمشاركة في دورة لتأطير معلمي اللغة العربية والعلوم الإسلامية اقامتها الرابطة مع معهد الملك عبدالعزيز لصاحبه بابا سيسي رحمه الله في مدينة باماكو العاصمة المالية سنة 1986 وكانت تلك الدورة من انجح الدورات التي اقامتها الرابطة في تلك المنطقة

ظل الدكتور عبد الله عمر نصيف رحمه الله وثيق الصلة بتونس يحن اليها ياتيها في زيارات خاصة وكان من بين مجموعة من رجالات مدينة جدة الذين رغبوا في الإقامة في تونس حيث شيدوا اقامات لهم في زغوان

رحم الله الدكتور عبد الله عمر نصيف واسكنه فسيح جناته وانا لله وانا إليه راجعون.

كتبه م ص م ونشر في الصريح أون لين



يَسْأَلُونَكَ قُلِّ

من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين

بقلم الشيخ محمد الحبيب النفطي

في مسائل مختلفة أغلبها في الصلاة

- س 1 : يقول السائل الكريم هل يجوز أداء صلاة الظهر قبل الأذان إذا كان المؤذن يؤذن لصلاة الظهر بعد دخول وقته بحوالي ساعتين؟
- س 2 : هل أن سجود السهو القبلي والبعدي يطلب في صلوات النوافل كما يطلب في صلوات الفرض؟
- س 3 : هل يجوز للإنسان أن يقدم الصلاة عن وقتها فيصلبها قبل دخول وقتها وذلك لضرورة العمل خاصة صلاة العصر؟
- س 4 : هل ان التشهد في الركعة الثانية من الصلاة يختلف عن التشهد الأخير في الصلاة؟
- س 5 : إذا خرج الإنسان في نزهة كامل اليوم هل يجوز له الجمع بين الصلوات فيصلبها في وقت واحد ويصلبها ركعتين - ركعتين أي سفرية ويصلبها قبل الخروج أم يجمعها ويصلبها بعد الرجوع إلى المنزل؟
- س 6 : هل يجوز للإنسان المسح على الجبيرة إذا كان بأحد أعضائه جرح أو دملة أم يجب عليه أن ينتقل إلى التيمم؟
- س 7 : ما هو آخر وقت لصلاة العشاء؟ ومتى تصبح صلاة العشاء قضاء؟
- س 8 : هل ينتفع الميت بقراءة القرآن على قبره؟ وهل يجوز لنا عند زيارة قبره أن نخاطبه وكأنه يسمعنا ونخبره بأمور الدنيا؟
- س 9 : هناك من الناس من يقول أن نزول الدمعة على الخد من الحي تحرق الميت وتعذبه فهل هذا القول صحيح؟
- س 10 : أنا أقرأ القرآن ولكنني لا أجيد الترتيل فهل أثاب على هذه القراءة؟

الاجوبة

- ج 1 : اعلم أيها السائل الكريم أن دخول وقت صلاة الظهر يبتدئ بعد الزوال أي بعد منتصف النهار بعشرين دقيقة تقريبا ولهذا يجوز للفرد أن يؤدي صلاة الظهر في ذلك الوقت وهو الأفضل لأن أحب الأعمال إلى الله تعالى الصلاة لأول وقتها والله الموفق.
- ج 2 : اعلم أن فقهاء المالكية الذين منهم أبو علي القداح الفقيه المالكي التونسي قال «من صلى الوتر ركعتين ساهيا سجد بعد السلام وصحت صلاته أي صلاة الوتر وقال أيضا

من صلى الوتر بالفاتحة فقط فإن كان ساهيا سجد سجدتين قبل السلام وإن كان عامدا فقد أساء ولا سجود عليه» انتهى نقلا من كتاب «المسائل الفقهية لأبي علي عمر بن علي القداح المتوفي سنة 734 هـ» والله الموفق.

ج 3 : اعلم أنه يجوز للإنسان أن يجمع بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم فيصليهما معا في وقت صلاة الظهر وذلك لضرورة العمل فيصلي الظهر أولا ثم يصلي العصر على إثر صلاة الظهر إذا كان الشخص لا يخصص له صاحب العمل أن يؤدي كل صلاة من الصلاتين في وقتها المقرر لها شرعا. وهذا الجمع أي جمع تقديم صلاة العصر عن وقتها وأدائها على إثر صلاة الظهر ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان يفعله في أسفاره والله الموفق.

ج 4 : اعلم أن التشهد الأول يختلف عن التشهد الأخير في الصلوات ففي التشهد الأول يكفي المصلي في تشهده أن يصل إلى قوله «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» ثم يقوم فيأتي بباقي الركعات ثم يجلس ويتشهد التشهد الأخير كاملا من الأول إلى الآخر.

ج 5 : اعلم أن تقصير الصلاة الرباعية وأدائها ركعتين - ركعتين لا يجوز إلا إذا كانت المسافة التي يقطعها المسافر خمسة وثمانين كيلومترا ذهابا وأن تكون مقطوعة دفعة واحدة لا على مراحل كما يقطعها رعاة الإبل والأغنام على مراحل طلبا للرعي وأن لا يكون هذا السفر سفر لهو كسفرك الذي ذكرته في سؤالك الذي هو سفر نزاهة والمطلوب منك أيها السائل الكريم أن تؤدي صلواتك كل صلاة في وقتها المقرر لها شرعا لأنك غير مضطر لتقصير الصلاة والله الهادي إلى سواء السبيل.

ج 6 : نعم يجوز المسح على الجبيرة في الوضوء ولا ينتقل صاحبها إلى التيمم. هذا ما قاله الفقهاء أيها السائل الكريم.

ج 7 : اعلم أيها السائل الكريم أن آخر وقت لصلاة العشاء وهو الوقت المسمى بالوقت الضروري لصلاة العشاء هو السدس الأخير من الليل الذي يقع بعده طلوع الفجر ولا يجوز للمسلم أن يؤخر أي صلاة من الصلوات الخمس إلى وقتها الضروري إلا عند الضرورة من نوم أو إغماء والله الموفق.

ج 8 : اعلم أنه تجوز قراءة القرآن الكريم على قبر الميت وينتفع الميت بهذه القراءة إن شاء الله لكن لا يجوز خطابه ولا الشكوى له فيما وقع بعده.

ج 9 : اعلم أن نزول دمعة الحي على الميت عند موته لا يعذب بها الميت إذ ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم أنه قال «العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» وعليه أيها السائل الكريم فلا حرج في بكاء المسلم على ميتة بالدمع دون صوت والله الموفق.

ج 10 : اعلم أن قراءة القرآن مرغبا فيها ويثاب صاحبها حتى ولو كان القارئ لا يجيد ترتيل القرآن الكريم والله الموفق.

سامحني يا رب...

بقلم صالح الحاجة

فيارب سامحني إن تجاوزت حدودي وقدرتي... انت حبيبي... ورحماني... ومعلمي...
ونجواي... وطيببي... وبدايتي ونهايتي...

لا أحد سواك اجد معه نفسي.. وراحتي... وطمأنيتي... وسكوني...
معك وأمامك وفي حضرتك أخرج من سجنني وذلي وهواني وانكساري... وأهرب
إليك من خوفاً وفزعاً وجزعاً وقلقي... وأنسى هزائمي وقهري وبؤسي... وتهدأ في
داخلي رياح الشك... وتتكرر عواصف التردد... وينزل علي اليقين نزول المطر على ورد
الربيع...

وفي كل مرة أعود إليك وأنا مبلى بعرق الخجل...
إنني أعود إليك وأنا في غاية الحرج والارتباك..
لماذا؟..

لأنني أعود إليك وأنا مذنب بعد أن تكون قد عفوت عني
الله أنت تغفر لي وتسامحني وتعفو عني ولكنني أنا الإنسان التائه الصغير أضعف
فارتكب المعصية والخطيئة واقع من جديد في الذنب والخطيئة والحقاقة الله..
انا ضعيف...
انا خطاء...

انا انهار تماماً أمام شهواتي... وملذاتي... فما انا الا بشر...
والبشر قريب جداً من بحر الأهواء... وبحر الجمال... وبحر اللذة..
وانت يا ربي خالق هذه البحار..
فكيف لنا ونحن الضعفاء ان لا ننهار امام قوة ابداعاتك... ومخلوقاتك الساحرة
الفاتنة؟ الله .

كيف... كيف؟..
وفي كل مرة اطمع في مغفرتك... وتسامحك الله.. ولطفك...
انني اعيش في كنفك ولطفك ورحمتك... ولولا ذلك لما استمرت حياتي.. بل
ولا تقلبت إلى جحيم لا يطاق...

يا مولاي...
يا من أعبد..
يا من أحب .
أنا عبدك اذن وأنت تعفو فما أكرمك... وما أوسع رحمتك...
إنني أعلن توبتي فتب علي يارب وارحمني وسامحني...

Al-Ḥarrâq met en avant également la *fatwa* du Shaykh al-Sanûsî⁽⁵⁾, au sujet du suivi du maître spirituel et l'entrée dans sa Tarîqa même contre l'avis de ses parents, dans son *sharḥ* (commentaire) d'al-Jazâirî⁽⁶⁾: « L'âme [charnelle] lorsqu'elle prend le dessus c'est comme l'ennemi envahisseur lorsqu'il est brusquement aux portes de la cité, c'est une obligation individuelle (*fard 'ayn*) de le combattre (*jihâd*) même contre l'avis des parents comme le *Jihâd* physique lorsque l'ennemi agresseur envahi notre territoire. »⁽⁷⁾

Al-Ḥarrâq rapporte ensuite le récit qu'il qualifie d'authentique concernant al-Sariyy al-Saqṭî⁽⁸⁾ qui avait donné un ordre à son disciple al-Junayd alors que le père de celui-ci lui avait donné un autre ordre. Al-Sariyy a appliqué l'ordre de son maître et dit plus tard : « je n'ai eu le succès que parce que j'avais mis en avant l'ordre de mon maître »⁽⁹⁾. Pour al-Ḥarrâq, il est ainsi plus logique de privilégier l'obéissance et le suivi de celui qui est plus digne et plus apte à être écouté et accompagné. Il cite l'exemple de la mère par rapport au père dans le *Ḥadîth* authentiquement rapporté par Bukhârî où le Prophète guida la personne qui l'interroge sur qui suivre lorsque les ordres des deux parents se contredisent ? Le Prophète répéta trois fois : « ta mère ».

A la fin de cette lettre, al-Ḥarrâq insiste également sur le fait de suivre le maître de la Tariqa et non le maître de la science extérieure⁽¹⁰⁾ en rapportant les commentaires de « al-Mukhtaṣar »⁽¹¹⁾ concernant l'autorisation de la rupture du jeûne surérogatoire du disciple/élève à la demande de son maître⁽¹²⁾.

(5) Il s'agit du savant Muḥammad Ibn Yûsuf Ibn al-Husayn al-Sanûsî, mort en 895H/1490, il est l'auteur de plusieurs ouvrages tels *Umm al-barâhîn fî al-'aqâid*, *al-'iqd al-farîd fî mushkilat al-tawḥîd* (qui est un *sharḥ* (commentaire) de *Lâmiyat al-jazâirî fî al-kalâm*. Voir *al-a'lâm* 8/29-30.

(6) En réalité et contrairement à ce qui est indiqué dans cette lettre d'al-Ḥarrâq, il s'agit d'al-Jazâirî Aḥmad Ibn 'Abd Allah al-Jazâirî, Shihâb al-Dîn Abû al-'Abbâs al-Zawâwî al-Mâlikî m 897H/1492. Référence : ḤAFNÂWÎ, Abî al-Qâsim, Ta'rîf al-khalaf bi rijâl al-salaf, Alger, maṭba'at al-jazâir, 1906, tome I, p.33.

(7) *Al-Sharḥ* (commentaire) de *Lâmiyat al-Jazâirî fî al-kalâm* : *al-'Iqd al-farîd fî mushkilat al-tawḥîd*. Même référence p.33.

(8) Oncle maternel d'al-Junayd et son maître spirituel, il a pris sa science de Ma'rûf al-Karkhî. Sariyy Saqṭî est mort en 251H -ou 257-/855 (ou 871). Référence : NABHANÎ, Yussuf, *Jâmi' karâmât al-awliyâ*, Beyrouth, al-maktaba al-sha'biyya, deuxième édition, 1974, tome II, p.74.

(9) Extrait de sa lettre n°31.

(10) Il est important de signaler que al-Ḥarrâq était considéré à la fois maître de la Tariqa et de la science extérieure.

(11) Il s'agit de *Mukhtaṣar al-shaykh Khalîl Ibn Ishâq al-Jundî*, une référence de l'école malikite, c'est une synthèse sur la *Mudawwana al-kubrâ* de Saḥnûn (déjà citée).

(12) En effet dans l'école de Mâlik, le *mash-hûr* (le plus répandu) est qu'on ne peut pas rompre le jeûne surérogatoire une fois entamé sans raison ou excuse. Car autrement il faut le rattraper. Parmi les raisons qui autorisent la rupture du jeûne surérogatoire sans devoir le rattraper : à la demande du père ou du **shaykh** même s'ils **ne jurent pas** : TAHER, 'Amir, *al-Tashîl li ma'ânî mukhtaṣar khalîl*, Beyrouth, dâr Ibn Ḥazm, 2009, 7/82-84.

tie d'atteindre le détachement. Ce dernier reste un don et une grâce de Dieu réservée à la *Wilâya Kubrâ* (la grande sainteté) qui aspire à la Face de Dieu sans autre but. L'élite de l'élite (*khâssat al-khâssah*) parmi les maîtres réalisés éduquent les âmes par le secret de l'Amour qui transforme les cœurs les plus durs en des cœurs sains et orientés vers le divin ».

Deux lettres sont particulièrement intéressantes pour démontrer d'une part la profondeur de son argumentaire juridique en faveur des notions clefs du soufisme (telle la réunion pour le Dhikr, la compagnie du maître éducateur et l'importance du soufisme pour protéger le Faqîh) et de l'autre, sa connaissance profonde du *Madhab* de l'école malikite : **il s'agit de la lettre 31 et la lettre 32.**

Dans la première, il répond d'abord à ceux qui interdisent la réunion spirituelle avec les « frères ». Son contexte est celui d'un père qui a empêché son fils de se réunir avec les Fuqara⁽¹⁾.

Al-Harrâq cite et met en avant pour réfuter cette interdiction la réponse d'Ibn 'Abbâd⁽²⁾ dans *Nuzhat al-nâzir al-mutaammil* ⁽³⁾ qui définit le soufisme comme la station où le serviteur est en même temps dans l'agrément de Dieu et Son amour (*al-ridâ wa al-mahabba*). Al-Harrâq s'exclame en ces termes : « si le soufisme est ainsi défini alors pourquoi celui qui croit en Dieu et au jour dernier le négligera pour s'occuper d'autre chose !

Les étudiants de la science sont dupés et orgueilleux, ils s'occupent du Fiqh (le droit) qui est une science des plus proches des objectifs nobles de l'existence humaine, sans purifier leurs intentions par le cheminement dans le soufisme ! Celui parmi ces étudiants qui prétend que son intention est correcte alors on lui dira : comment prétends-tu cela alors même que tu n'as jamais mis le pied dans la voie de la purification (le soufisme) ! Ce n'est qu'à travers cette Voie (*hadhihi al-tarîqa*) que tu pourras percevoir les ruses de ton âme et découvrir l'ostentation (*riyâ, shirk al-khafîyy*) et les diverses vicissitudes liées à sa nature y compris les plus cachées. Ainsi ta quête de science sera motivée par la religion (et non le bas monde). Cette quête « spirituelle » est un devoir religieux, elle exige de toi le voyage vers celui qui est connu par son aptitude à l'éducation même contre l'avis de tes parents. »⁽⁴⁾

(1) Terme désignant les disciples d'une voie spirituelle (litt. pauvres (en Dieu) inspiré du terme coranique « *fuqarâ ilâ Allah* » Sourate 35, verset 15).

(2) Nous avons présenté cette réponse détaillée en annexe. Il s'agit d'Ibn 'Abbâd al-Rundî (de Ronda) Muḥammad Ibn Yahyâ al-Nafzî, parmi ses ouvrages : *al-rasâil al-kubrâ*, il est mort à Fès en 1389/792H. Voir *Salwat al-anfâs* 2/133, *al-a'lâm* 5/299.

(3) Ouvrage d'Ibn 'Abbâd manuscrit sous le nom « *Nuzhat al-nâzir al-mutaammil waqayd al-sâir al-musta'jil* », al-khizâna al-ḥasaniyya, Rabat, Maroc, n°2437.

(4) Cf. Lettre 31 (annexe).



Le fiqh éclairé d'après al-Harrâq

Par Tarik Abounour Bengarai

Le maître al-Harrâq est bien conscient -comme le démontre sa **lettre n°26**- que les ulémas de l'extérieur (ẓâhir) ne peuvent pas être des modèles pour purifier l'âme de ses vicissitudes ni le cœur de ses maladies ni pour obtenir le détachement de tout ce qui n'est pas Dieu !⁽¹⁾. Il explique ainsi dans cette lettre que les gens sont de trois catégories : Les communs (*al-‘amma*), les élus (*khâssa*) et l'élite de l'élite (*khâssat al-khâssah*).

Il explique ainsi : « Si les communs (*al-‘amma*), se préoccupent uniquement des péchés extérieurs, en s'appuyant sur les ulémas de l'extérieur pour savoir ce qui est interdit et ce qui est autorisé à travers les *fatwas* qui émanent de ces autorités religieuses ; puis essayent de suivre à la lettre leur verdict, ils restent emprisonnés de leur ego. En effet, les ulémas n'ont pas l'aptitude de les délivrer des maladies qui habitent le cœur (telles l'ostentation, l'orgueil, la vanité, la jalousie, la haine, l'autosatisfaction...) ⁽²⁾ et qui voilent la Vérité (*Haqîqa*). Les élus (*khâssa*) parmi les ascètes et les adorateurs, versent dans les pratiques cultuelles multiples et les différentes privations mais sans garan-

(1) Nous signalons à ce titre que plusieurs savants anciens et contemporains ont déjà traité ce sujet de différenciation entre les savants du Ẓâhir(savants exotériques) et ceux du Bâtin (savants des maladies intérieures, gnostiques), nous signalons les travaux de synthèse de Muḥammad al-Saghîr al-Ifrânî (m.1156H/1744) dans son chapitre : « *Ayyuhumâ Afḍal* » (qui est meilleur ?) où il rapporte les arguments d'Ibn Arabî al-Hâtîmî, de ‘Izz Ibn ‘Abd al-Salâm (m.660H/1262), d'al-Barzalî al-Qayrawânî al-Mâlikî (m.884H/1440) , d'Abî al-‘Abbâs al-Sussî (m.1130H/1717) et d'autres. Voir : IFRÂNÎ, Saghîr, Muḥammad, *Durar al-hijâl fî manâqib sab'atu rijâl*, analyse et commentaires Ḥasan Jallâb, Marrakech, ed.al-maṭba'a wa al-warrâqa al-waṭaniyya, année 2000, p.59 et suivantes.

(2) Ces maladies intérieures sont également désignées dans le Coran comme péchés intérieurs à éviter par le croyant au même titre que les péchés extérieurs : « Et laissez le dehors et le dedans du péché », Coran : sourate 6, verset 120. « Et n'approchez pas des turpitudes - tant de ce qui en paraît que de ce qui s'en cache. », Coran: sourate 6, versets 151.

L'injonction de purifier l'âme humaine est également dans le Coran : « ...par l'âme et par Celui qui l'a façonné harmonieusement, qui lui a inspiré licence ou bien piété, a d'ores et déjà réussi celui qui l'a purifiée... » Sourate 91, versets 7 à 10.

siècle de l'ère musulmane.

Il y a effectivement un « écart » chronologique » entre les faits de la vie du Prophète et leur mise à l'écrit, un siècle et demi environ plus tard. On a déjà beaucoup écrit sur les raisons et les implications de ce processus tardif de codification des sources. Mais ces premières apparitions de Muhammad dans l'histoire montrent que l'attachement au Prophète implique nécessairement un processus de détermination de sa personne et de sa fonction.

En laissant de côté le débat qui accompagne la recherche du noyau ancien de transmissions (en effet, Denis Gril n'aborde pas la question de l'historicité des sources), il faut néanmoins noter que la complexité de l'image du Prophète qui émerge dans les premières sources demande au lecteur moderne, même arabophone, un travail ardu de repérage des contours de la figure prophétique. Le seul recours aux ouvrages « biographiques » (sira, pl. siyar) se révèle insuffisant car ils mettent l'accent sur certains traits de la vie du Prophète, pour situer la révélation coranique dans un cadre chronologique. En réalité, même en se limitant aux seules sources sunnites — c'est le choix du présent recueil — nous devons tenir compte d'un vaste ensemble de textes, de nature différente: recueil de traditions à visée juridique, hadith, exégèse coranique, chroniques, dictionnaires prosopographiques (biographies)...

L'ampleur de ces sources justifie en soi de thématiser la figure prophétique. Chaque article du présent ouvrage naît du questionnement d'un chercheur en sciences humaines. Le travail de l'auteur permet d'isoler, dans les textes anciens, des narrations que les premiers compilateurs n'avaient naturellement pas présentées de la même manière. L'approche de l'auteur se caractérise, entre autres, par une lecture étendue du corpus des traditions. C'est un travail exigeant qui permet de mettre à la disposition du lecteur non arabophone des aspects de la vie du Prophète difficilement repérables dans les sources. À moins de posséder une solide formation traditionnelle accompagnée de la curiosité du chercheur. La vertu thaumaturgique du corps du Prophète, par exemple, apparaît seulement à un certain moment de l'histoire de la prophétologie islamique (le x^e siècle, avec le *Shifâ* du Cadi 'Iyâd). Mais les sources sont plus anciennes: les premiers compilateurs de hadith en font état dans des chapitres non directement liés à la question du corps. Prenons un exemple tiré du chapitre 8 du présent ouvrage, consacré au corps du Prophète. Son épouse, Umm Salama, conservait ses cheveux dans un récipient d'argent. Ils étaient utilisés pour soigner les maladies et le mauvais œil. On les trempait dans de l'eau dont on aspergeait le visage du patient. Cette tradition, tirée de la collection de Bukhârî, se trouve dans le chapitre qui traite des vêtements (libâs): la fonction thérapeutique est là, mais n'est pas traitée comme un thème en soi.

d'une l'espoir du salut. Contrairement au Dôme du Rocher, émanation d'une volonté politique et impériale, la pierre tombale de 'Abbâsa n'est rien d'autre qu'un document privé. Plus tard, les recueils de hadith transmettront une parole que cette pierre tombale met en pratique: le Prophète aurait autorisé les croyants frappés par une calamité (la perte d'une personne aimée) à trouver un réconfort en se rappelant qu'aucune calamité ne peut égaler la perte du Prophète lui-même ! Fritz Meier, dans sa longue étude sur la « survie » du Prophète après sa mort selon un traité de Suyâti (m. 1505) remarque que cette pratique est observable dans de nombreuses inscriptions funéraires ?. On remarque également, malgré la différence de nature des deux inscriptions, un élément commun: la présence de la prière sur le Prophète, la demande de grâce que le croyant adresse à Dieu en réponse au verset 56 de la sourate 33 (Les Coalisés). Je reprends ici la traduction qu'en donne Denis Gril dans le premier chapitre de ce livre: « Dieu et ses anges prient sur le Prophète. Ô vous qui croyez, priez sur lui et saluez-le abondamment ». L'auteur souligne que « la ritualisation de cette pratique, dans la dernière phase de la prière rituelle en particulier et dans toutes sortes de circonstances, ne peut pas ne pas être comprise comme la volonté d'intérioriser la présence du Prophète? ». Cette intériorisation s'accompagne, on l'a vu avec le Dôme du Rocher, d'un processus plus vaste de construction d'identités privées et communautaires.

Quelle que soit la diversité des situations, le Prophète reste une source de bénédiction. Sheila Blair a étudié l'itinéraire de ce verset dans l'histoire de l'art islamique et dans les sources matérielles. Elle en arrive au même constat :

Le rôle du Prophète était important pour les musulmans dans l'ensemble de la région, non seulement pour l'élite omeyyade mais aussi pour la communauté des croyants, car le même verset coranique, utilisé deux fois dans le Dôme du Rocher, est aussi inscrit sur un rocher près de Tâ'if dans le Hijaz. Le reste de l'inscription de cinq lignes contient seulement le nom de la personne qui l'écrit, un 'Abdallah b. Ta'im (?) Muhammad b. Mihrân. Bien que non daté, ce graffiti peut être daté du premier siècle de l'islam, pour des raisons stylistiques, en particulier à la lumière d'une comparaison précise avec un autre graffiti du même style qui célèbre la construction d'un barrage par le Calife omeyyade Mu'awiya en 58/677-8. Alors que les inscriptions monumentales comme celle du Dôme du Rocher étaient conçues pour s'adresser au public, ce type de graffiti visait davantage à faire une déclaration personnelle, en l'occurrence de l'importance du Prophète pour le croyant qui est tenu de le vénérer !

Ces premières mentions du Prophète - auxquelles nous devons ajouter celles qu'on trouve dans les sources non musulmanes de la même époque ? - peuvent paraître insuffisantes et peu consistantes, comparées au foisonnement de la figure prophétique dans les sources textuelles qui voient le jour au cours du I^{er}

de foi: unité de Dieu et mission de Muhammad, est inscrite sur des monnaies, en langue locale pehlevi.

L'autorité dont se réclame l'opposant politique, c'est le message que la monnaie véhicule: foi monothéiste et exemple prophétique, que, pour leurs opposants, les Califes de Damas n'incarnaient pas .

Les décennies qui suivent la mort du Prophète sont caractérisées par des luttes de pouvoir et d'autorité spirituelle, dans lesquelles les deux successions du Prophète, religieuse et politique, sont en jeu et disputées. L'empire cherche, on l'a vu dans le Dôme du Rocher, à se présenter comme l'héritier du « Sceau des prophètes ». Mais d'autres « mémoires » commencent à s'instaurer, et des sources issues de la vie privée témoignent d'un besoin similaire de se rattacher au Prophète.

Une stèle funéraire, datée de 71/691, a été retrouvée à Aswan. Elle dévoile l'identité d'une certaine « Abbâsa, fille de Jurayj, qui a vécu à l'époque du Calife 'Abd al-Malik. Sur sa pierre tombale, nous lisons :

Les décennies qui suivent la mort du Prophète sont caractérisées par des luttes de pouvoir et d'autorité spirituelle, dans lesquelles les deux successions du Prophète, religieuse et politique, sont en jeu et disputées. L'empire cherche, on l'a vu dans le Dôme du Rocher, à se présenter comme l'héritier du « Sceau des prophètes ». Mais d'autres « mémoires » commencent à s'instaurer, et des sources issues de la vie privée témoignent d'un besoin similaire de se rattacher au Prophète.

Une stèle funéraire, datée de 71/691, a été retrouvée à Aswan. Elle dévoile l'identité d'une certaine 'Abbâsa, fille de Jurayj, qui a vécu à l'époque du Calife 'Abd al-Malik. Sur sa pierre tombale, nous lisons :

Au nom de Dieu, le Miséricordieux, le Très-Miséricordieux. La plus immense des calamités qui ait frappé les gens de l'islam est leur perte du prophète Muhammad - que Dieu le bénisse et le salue! Ceci est la tombe de « Abbâsa fille de Jurayj, fils de Sanad (?). Puisse Dieu lui accorder Sa miséricorde, Son pardon et Son agrément. Elle est morte un lundi après que 14 jours s'étaient écoulés depuis le début du mois de Dhû l-Qa'da de l'année 71. Elle attestait « Point de divinité en dehors de Dieu, Muhammad est Son serviteur et Son Envoyé », que Dieu répande sur lui Sa grâce et Son salut.

Le texte relie donc l'histoire privée d'une personne, appartenant à la première génération de ceux qui naissent désormais en Islam, à l'histoire du fondateur, Muhammad, dont le souvenir doit être évoqué pour donner du sens à la perte de la vie. Jonathan E. Brockopp a étudié ce document pour montrer comment l'attachement, non seulement au Coran, mais également à la personne du Prophète, était central, à cette époque, pour la définition de la croyance, et plus particulièrement pour l'espoir du salut. Contrairement au Dôme du Rocher, émanation

Le visiteur qui pénétrait dans le Dôme en empruntant la porte orientale pouvait lire également une inscription située sur une plaque en bronze positionnée au-dessus de l'entrée (mais désormais déplacée dans le musée du Haram). Cette plaque était encore lisible à l'époque du voyageur et épigraphiste suisse Max van Berchem (m. 1921), qui transcrit le texte de cette inscription : il s'agit d'une demande de grâce adressée à Dieu, faisant état, avant toute théologie, de la centralité que ces hommes et ces femmes accordaient au Prophète dans l'économie du salut:

Nous Te demandons, Seigneur, par Ta miséricorde et par Tes Noms les plus beaux, par Ta noble face, par Ton immense pouvoir, par Ta Parole parfaite par laquelle subsistent les cieux et la terre et par laquelle nous sommes préservés - par Ta miséricorde - du Démon, par laquelle nous sommes sauvés de Ton châtiment le Jour de la Résurrection, par Ta faveur abondante, par Ta grâce immense, par Ta longanimité et Ta Toute-Puissance, par Ton Pardon et Ta bonté : bénis Muhammad, Ton serviteur et Ton Prophète et agréé son intercession pour sa communauté! Puisse Dieu lui accorder Sa grâce et Son salut ainsi que Sa miséricorde!?

LE SERVITEUR DE DIEU

L'intensité de cette prière est remarquable. Elle est la plus ancienne «demande de grâce pour le Prophète » (al-salât alâ al-nabi) qui nous soit parvenue datée. Elle investit ce dernier de la fonction finale d'intercession, mais avant que cette demande soit formulée, cette prière, qui provient de Dieu, doit se charger en quelque sorte de tous les attributs de la divinité. Le Dôme du Rocher porte d'autres signes, moins visibles, de l'attachement des Omeyyades au Prophète. Ainsi, Finbarr B. Flood a étudié la présence d'un disque en onyx noir encastré dans la niche à prière (mihrâb) dans la grotte qui se situe à l'intérieur du rocher. Cette marque indiquerait le lieu où le Prophète, lors de son Voyage Nocturne, a dirigé la prière, selon le récit traditionnel, devant l'ensemble des autres prophètes. Si la niche est sûrement un élément tardif datant du IX^e ou du x^e siècle, le disque lui-même pourrait être antérieur et être issu d'une réutilisation d'un objet plus ancien, d'époque omeyyade. En effet d'autres indications attestent que les califes de cette dynastie avaient placé des disques noirs à des endroits où le Prophète était supposé avoir effectué une prière rituelle. C'est le cas d'un disque noir placé à l'intérieur de l'enceinte sacrée de la Kaaba, que les sources font remonter au Calife al-Walid, le fils de 'Abd al-Malik, lors de la reconstruction de l'édifice, après la guerre civile qui avait opposé son père à Ibn al-Zubayr, et pendant laquelle la Kaaba avait été lourdement endommagée! . Plus loin, au Khorassan, des opposants politiques du califat mettront en circulation pour la première fois des monnaies attestant la légitimité d'Ibn Zubayr, qui mène une révolte anti omeyyade à La Mecque. Pour la première fois, la double attestation

» ; « Qualité de ce qui éveille à l'esprit, de ce qui peut être porteur de vie spirituelle ». A ce qui est esprit et ce qui éveille à l'esprit correspond la manière dont les musulmans ont conçu et vécu la présence de leur Prophète. C'est à cette vision du Prophète comme source de vie de l'âme et comme maître spirituel que l'auteur a effectivement consacré sa relecture des textes fondateurs de l'Islam, le Coran et le hadith. Cette approche intriguera celui pour qui Muhammad est avant tout le chef d'une communauté et le fondateur d'une nouvelle loi, alors que son influence dépasse largement le lieu et le temps de son action originelle, l'Arabie du VII^e siècle. En réalité, les sources anciennes tracent un portrait beaucoup plus complexe et complet du Prophète, certes de façon moins explicite et plus discrète : celui d'un serviteur de Dieu, d'un maître spirituel, dispensant des enseignements qui orientent l'homme vers sa dimension la plus haute et la plus profonde. C'est en prenant pour modèle cet aspect du Prophète de l'Islam que les maîtres soufis et leurs précurseurs affinent leur pédagogie spirituelle dès la fin du VIII^e siècle. L'auteur revient donc aux textes les plus anciens et les relit en recherchant des traditions aujourd'hui peu connues, y compris en milieu musulman, pour mettre en lumière cette dimension fondatrice. Ce retour au texte doit nous garder de ne voir dans la dévotion au Prophète qu'une manifestation tardive de la religion « populaire ». L'attachement à la personne du Prophète remonte aux origines et est solidement ancré dans la tradition savante. En comprendre toute la portée reste néanmoins une question ouverte, et ce volume jette sur cette dévotion des éclairages inédits. En m'appuyant sur des sources non textuelles, je vais également tenter d'y répondre. Je m'intéresserai ainsi à un moment particulier de l'émergence du Prophète dans l'histoire (le siècle qui suit sa mort), avant d'analyser la manière dont l'auteur conçoit son travail sur les sources, tout en expliquant les principes qui ont guidé l'enchaînement des chapitres. Je reviendrai enfin sur la figure de Muhammad comme fondateur.

Mohamed dans l'histoire

En 691, cinquante-neuf ans après la mort de Muhammad, son nom apparaît inscrit pour la première fois sur le plus ancien complexe architectural de l'histoire islamique, le Dôme du Rocher de Jérusalem, édifié par le Calife Omeyyade 'Abd al-Malik (685-705) !. Des inscriptions en mosaïque, monumentales, ornent des deux côtés l'arcade octogonale interne qui encercle le « rocher de fondation », un affleurement du mont Moria. Ces inscriptions sont tirées de formules coraniques et non coraniques, elles affirment la prophétie de Muhammad et annoncent l'événement du jugement dernier, perçu comme imminent. Le fidèle qui suit le rythme des inscriptions est invité à adresser des bénédictions au Prophète, et le texte implore Dieu d'accorder à Muhammad la capacité d'intercéder pour les fidèles lors du Jugement.



ÉCRIRE L'HISTOIRE DE LA SPIRITUALITÉ EN ISLAM⁽¹⁾

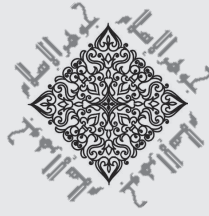
Francesco Chiabotti

Comme l'auteur le rappelle dans son Avant-propos, l'idée de ce recueil est née dans le cadre d'un projet de recherche international questionnant la relation des musulmans à leur Prophète, et les modalités et les évolutions de sa « présence » dans les sociétés musulmanes à l'époque prémoderne, moderne et contemporaine. Néanmoins, les actes du projet comportent un certain nombre de retours sur l'époque fondatrice et médiévale, et c'est dans ce retour aux sources que se situent la plupart des études réunies dans ce volume. Elles tournent toutes autour d'un même axe: le Prophète Muhammad, tel que le représentent les textes fondateurs de l'islam : le Coran, le vaste corpus du hadith dans la tradition sunnite, la sîra, et tel qu'en esprit, il n'a cessé d'inspirer les maîtres spirituels de l'islam. Elles explorent les sources scripturaires qui, dans leur complexité, ont façonné une mémoire collective, constamment revisitée, de la figure du Prophète.

Cette figure doit beaucoup à la manière dont elle a été perçue, vénérée par ses proches, sa famille ou ses compagnons, puisque c'est en grande partie par leur truchement et par la tradition qui l'a transmise que le Prophète est resté proche des croyants de siècle en siècle. C'est de cette présence et de cette réalité que ce livre cherche à rendre compte.

La trame de ces contributions, écrites sur un laps de temps assez long, est donc le Prophète comme source et modèle de spiritualité en Islam. Peut-on alors parler d'approche phénoménologique? Ces essais, en évoquant des attitudes, des modes subtils de transmission, visent-ils à cerner les structures profondes d'une spiritualité et à préciser la place qu'y occupe le Prophète? Peut-être faut-il rappeler le sens de ce terme, qui apparaît dans le sous-titre du livre ? Parmi les définitions proposées par le portail du Centre National de Ressources Textuelles et Lexicales, nous trouvons les suivantes: «Qualité de ce qui est esprit ou âme, concerne sa vie, ses manifestations ou qui est du domaine des valeurs morales

(1) Introduction du livre : Le serviteur de Dieu Denis Gril



JAWHAR EL ISLAM

Revue culturelle islamique - Tunisie

Numéro 5/6 - 24ème année

Rajab 1447/Décembre 2025

SOMMAIRE

Écrire l'histoire de la spiritualité en islam	2
Le fiqh éclairé d'après al-Harrâq	8